

من مكتبة الاقتصاد الإسلامي

وَضْعُ الرِّبَا

فِي

الْبِنَاءِ الْقِصَاصِيِّ

دكتور عيسى عبد

الطبعة الثانية

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

دار الاقتصاد

بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة الناشر

يسرّ دار الاعتصام أن تقدم هذا الكتاب إلى القراء . . إنجازاً لما وعدت به من بذل كل جهد لمتابعة المسيرة نحو هدف واحد . . هو نشر الوعي الإسلامى . . وتيسير الإطلاع على الجديد من المعرفة ، فضلاً عن عناية الدار بتقريب التراث الإسلامى العظيم . . إلى شباب هذه الأمة . . أياً كان التخصص الذى شغل بعضهم عن علوم الدين ، فى زمن مضى ، قيل فيه بغير حق : إن علوم الدين لرجال بذواتهم . . وأما من عداهم فبحسبه دراسة الهندسة أو الطب أو القضاء !! وهذا افتئات على الله الذى يسر القرآن للذكر « فهل من مدكر » .

ومؤلف هذا الكتاب معروف للقارئ . . وله مؤلفات لم تطبع من قبل ، وأخرى ظهرت خارج مصر فى الأعوام القليلة الماضية . . ويطيب لدار الاعتصام أن تتابع نشر هذه وتلك والله المستعان .

الناشر

مقدمة الطبعة الثانية

تظهر هذه الطبعة الثانية في أوائل سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) وهي وإن كانت الثانية في تاريخ هذا المؤلف الصغير إلا أنها الأولى في مصر .. لأن ما يُطبع خارج هذا البلد الأمين .. كبير التكلفة إنتاجاً ونقلًا وتوزيعاً .

فإلى القارئ الكريم أقدم هذه النظرات في بناء الاقتصاد وهيكل المجتمع .. وما يحدث فيه من أخذ وعطاء .. وتقليب للأموال .. وتكاثر للأرزاق .. وفي الحديث الشريف «دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض»

ولقد قرأتُ هذا الكتاب من جديد ، بعد خمسة أعوام من ظهوره أول مرة .. ووجدته يضم مجموعة صالحة من معالم الطريق نحو

« الاقتصاد الإسلامى » ولم أزد على الطبعة الأولى شيئاً .. فإن كان عندى ما أضيفه بعد الآن .. فإن « مكتبة الاقتصاد الإسلامى » لا تزال بأول الطريق .. وسنكتب ونكتب ، ما شاء الله لهذا القلم أن يجرى بكلمة الحق .. وسيكتب غيرنا خيراً مما نكتب .. « وكل شئ عنده بمقدار » فاقدر يفوتنا فى بعض حلقات المكتبة التى ندعو إلى إثرائها .. نعود إلى تعويضه .. أو يسبق غيرنا .. أو يلحق .. « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » والله من وراء القصد .

* * *

والكتاب الذى بين يديك ، أيها القارئ الكريم .. يكشف عن حقائق رئيسية فى الحياة الأولى .. وهذه هى :

أولاً : إن الهيكل الكلى للمجتمع (وفى إطاره البناء الاقتصادى) قد أحكم الله صنعه .. وجعل فيه درجات أو مستويات **Levels** يعلو بعضها بعضاً كطوابق الدار أو درج الهرم .. ومن خطئ رأى أن يظن إنسان سطحى النظر أن موقع الحجر عند قبة البناء يؤهل هذا الحجر المعين أن يظن بأنه من طينة غير طينة الأرض .. وهى مادة الحجر والمدبر والبشر .. فلا العلو فى الوظيفة . إذن ، ولا التدلى فى الوظيفة أيضاً ، بمدعاؤهم للارتفاع بقدر زيد أو التزول بقدر عمرو .. وإنما هو التكامل^(١) الذى اقتضته الحكمة .. وحين حاكى

(١) التكامل أصل من أصول الخلق أو هو واحد من ضوابط الخلق كما يقول المؤلف فى كتابه « الاقتصاد الإسلامى »

الإنسان نظام الخلق .. جعل لكل مفردة في الجهاز أو جزئية في الأداة الكاملة .. موقعاً واختصاصاً .. وبقدر ما يكون بين المفردات من ترابط (في الماديات والطاقات) وبقدر ما يكون بين الناس (في المجتمع البشرى) من مودة وتراحم .. يكون الجهاز الكلى أو المجتمع الإنساني سليم التكوين .. ومن ثم يكون قادراً على تحقيق النفع للناس .. ونشر العمار .. وهذه بعض من عناصر الأمانة التي يحملها الإنسان .

ثانياً: في حدود الإطار المحكم الذي يجمع الوجود الكلى للمجتمع وبنائه الاقتصادي .. تقوم الروابط والعلاقات .. من صنوف شتى .. ويعيننا منها في المحل الأول ' العلاقات الاقتصادية ' وهذه بدورها تسفر عن وجودها في عقود ومعاملات ومراكز قانونية وأخذ وعطاء .. وفي كل جانب من جوانب البناء الاقتصادي وفي كل مستوى رفيع أو بالغ التواضع يحتاج بعض الناس لبعض ويرتفع ناس بأيديهم ليصبوا المال صباً في أيدي غيرهم .. ومن الناس من غلبت عليهم السقوة .. فإذا قدر لهم أن تكون أيديهم العليا .. أبوا إلا أن يصبوا المال في أفواههم وفي جيوبهم .. ومن ثم يعيشون عبيداً للشهوتين كما أنبأنا رسول الله ﷺ .. بل كما وصفهم القرآن ' أولئك كالأنعام بل هم أضل ' وفيما تقدم من القول بأن أيدي هؤلاء تشبه اليد العليا (منطق مُشْكِل) .. لأن العكس هو الصحيح .. وما هذا العلو الظاهري إلا من باب الخداع ..

خداع الشيطان لمن ضل عن ذكر الله .

وفي هذا المقام لطيفة أحب أن أضعها بين يدي القارئ ..
وبيان ذلك : في بعض المحاضرات العامة ، وعلى مسمع ومرأى
من أصحاب الملايين الذين يودعون أموالهم عبر البحار لتكون
لخصوم الإسلام عوناً على أمة الأنبياء .. كنت أقول لهؤلاء « إن
أكل الربا متسوّل ، فاقد الكرامة ، وهو كلّ على المجتمع ..
أيّما توجهه لا يأتي بخير .. »

قال قائل منهم (بعد محاضرة عامة) كيف تجمع بين إيداع
الأموال الطائلة لحساب زيد من الناس .. وبين العافي الذي
يَعُدُّ بطلب الإحسان كشكولاً ؟ (١)

قلت : يا صاحبي .. إن أكل الربا .. الذي يقضى زمانه في
انتظار دورة الزمن واستحقاق الفائدة والجوائز ذات النصيب ..
إن هذا الآدمي الشقيّ .. يمدُّ يده في الموعد الدوري المحدد ..
ليصبّ المرابي كمّاً من المال متفق عليه سلفاً .. ويقال لهذا الكم
« الفائدة المحددة سلفاً لرأس المال » ، ولو أن المرابي .. الذي يدفع
الفائدة ليحتكر رؤوس الأموال .. قبض يده عن العطاء
الحبيث .. لظلت يد المليونير صفرأً من أي عطاء .. أفلا ترى
إذن .. أن صاحب الملايين يستجدي الفوائد الثابتة من
المجتمعات الناشطة .. التي توجه الأموال إلى ميادين الإنتاج ؟

(١) أي يستجدي الناس .

أفلا ترى معنى أن يد صاحب الملايين حال قبضه للفائدة على
رؤوس أمواله .. هي اليد الدنيا ؟
ثم أردفت قائلاً : بلى وربى إنهم متسولون .

إذن هي علاقات ومعاملات وأرزاق .. أراد الله بها أن يبتلى
العباد .. فبعث فيهم رسولاً خاتماً ونزل من لدنه سبحانه وتعالى :
” أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين
يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله
يهدى به من يشاء .. ومن يضلل الله فما له من هاد “ .

هذا عن كلام الله وآياته .. ولها مواقعها في الدليل إلى
ضوابط السلوك من القرآن والسنة .. أما في هذه العجالة ..
فقد جعلتُ المعاملات الشرعية والزكاة والصدقات والسخاء في
النفقة وفي تقدير الأجر ... جعلت هذا كله بمثابة التيارات
الخفية التي تهبُّ في داخل الهيكل الاجتماعي .. فتعين على نوائب
الدهر ووعثاء السفر .. وكان طبعياً أن يكون ما عداها من
ظلم وغبن وبخس الناس أشياءهم .. كريح السوم أو كالريح
العقيم .. وشرها : الربا .

وفي كتاب الله جل وعلا .. آيات تضع الموازين القسط .

وتهدى للتي هي أقوم ..

وفي لغة هذا العصر جعلنا للآيات التي تناولت سلوك الأفراد وسلوك الجماعات في التصرف الاقتصادي « ضوابط ^(١) » فيها ترغيب وترهيب .. وفيها أوامر إرشاد وأوامر إقدام وأوامر إحجام وما قصدنا بذلك إلا التنبيه إلى أن أساليب المتكلمين ما جاءت بجديد .. ذلك أن منها ما رزق الفهم فأدرك بفطرته ما تقضى به آيات بينات ... ومنها ما انحرف عمداً أو بجهالة .. فأساء .. ولكن النصوص باقية وهي عندنا قطعية الثبوت قطعية الدلالة .

قوله تعالى

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا متناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم * يأبى الذين ءامنوا لا تبطلوا صدقتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ، ومثل الذين

(١) الإنسارة إلى كتاب جعلنا عنوانه « دليل إلى ما في الكتاب والسنة من ضوابط للسلوك الاقتصادي » تحت الطبع

ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابلٌ فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطلُّ والله بما تعملون بصير * أيودُ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذريةٌ ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت كذلك يبينُ الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون * يأبى الذين ءامنوا أن ينفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه وأعلموا أن الله غنىٌ حميدٌ * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً والله واسعٌ عليم * يُؤتى الحكمة من يشاء ومن يُؤتِ الحكمة فقد أُوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب * وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصارٍ * إن تُبذوا الصدقات فنعماً هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير» (١)

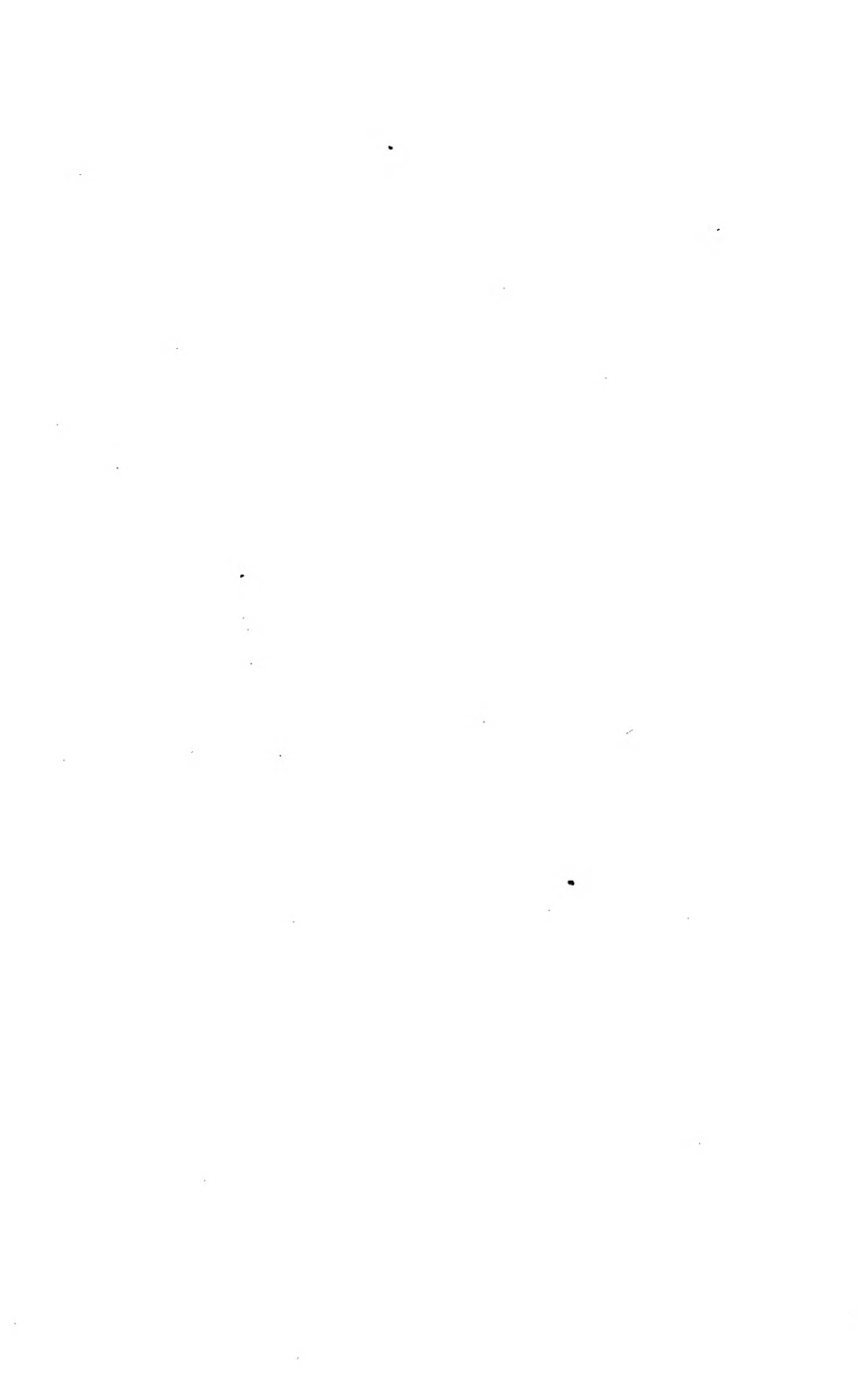
هذا وبالله التوفيق

المؤلف

الجزية ١٢ شارع النيل

في غرة المحرم ١٣٩٧ هـ

(١) الآيات من رقم ٢٦١ إلى رقم ٢٧١ من سورة البقرة .



مقدمة الطبعة الأولى

يصدر هذا الكتاب في سنة ١٣٩٢ هـ ، بعد إلقاء المحاضرة الأولى (في ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٩) بنحو ثلاثة عشر عاماً . . . وكانت الإدارة العامة للثقافة الإسلامية (بالأزهر الشريف) قد عنيت بنشر المحاضرتين تباعاً في دوريات المواسم الثقافية . . كما عُنيَتْ بنشرهما في كتيّبات خاصّة . . ثم نفذت هذه وتلك . . وتكرر الطلب . . ومن ثمّ كانت الحاجة إلى إصدار هذا الكتاب .

كان طبعياً أن أعيد النظر في المادّة وأن أنشير إلى ما ألاحظه عليها دون المساس بالأصل . . . وذكرتُ ، حال اطلاعى على الأوراق ، بعض النقد الذى وجّهه باحث أو كاتب قال قائل منهم أن المحاضرتين قد جاءتا خلواً من النصوص الفقهية ، وقال آخر أن أحكام الربّا غير مجلّوة للمستمع ، وبالتالي للقارى . . . وجبّذا لو كانت هذه الأحكام وقد وجدت نصيباً من العناية .

وقد صدق كلّ من الباحث والكاتب فيما قال^(١) وإنّه ليكفينى أن أتبه القارئ إلى مجال القول الذى يتحدّد بعنوان المحاضرة

(١) للكلام عن أحكام الربّا وما دار حولها من جدل أعدّ المؤلف كتاباً قائماً بذاته عنوانه « بحوث فى الربّا » وستتولى نشره « دار الاعتصام » قريباً إن شاء الله تعالى . . أما أصل المادّة المنشورة فى هذا الكتاب . . فقد كان إعداده بمناسبة اللقاء محاضرتين . . على نحو ما هو وارد فى المتن .

الأولى . . . وامتداد هذا المجال إلى المحاضرة الثانية ، بناء على طلب المضيف .

بجال القول هنا يتحدّد في « وضع الربا » لا في حكمه ، ولا في أقوال السلف الصالح من الفقهاء والمفسّرين وعلماء الحديث . . . ولذلك جاء الكتاب بصيغة خاصّة . . . كما جاء بمحاولة تضاف إلى ما بذله الآخرون من جهود مشكورة ، تهدف إلى تبيان الحكمة من تحريم الربا . . . ومعلوم أن قسماً من أحكام الدين الحنيف يعرض على حاكم العقل فيقبله . . . أو كما يقول الإمام الغزالي . . . هو قسم ، للعقل فيه نصيب كلّ النصيب . . . كقوله تعالى « يأيا الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . ويرى المؤلف أن أحكام المعاملات ، كما احتواها التراث الإسلامي العظيم ، هي مما يطمئنّ إليه القلب والعقل جميعاً . . . ويرى أيضاً أن الاجتهاد (بحقّة وبشروطه) لا يقفل بابه أبداً . . . ولكن على المجتهد أن يقدر الأمانة التي يقوم على حملها ، وأن يخلص العمل لوجه الله تعالى وأن يستهديه . . . لأنه يقدم على أمر عظيم .

وقد يلحظ القارئ أن المحاضرة الأولى تتّجه من مطلعها إلى توكيد الكمال والتوفية ، ونسبتها إلى جملة أحكام الدين . . . ومع ذلك يقول المحاضر (وهو كاتب هذه السطور) أن باب الاجتهاد لا يقفل ، فهل معنى ذلك أنّه عدل عن موقفه الأوّل ؟

والجواب بالتّقي . . فالرأي اليوم هو الرأي الذي أعلنته في قاعة الإمام محمد عبده في عدّة مواسم . . . كما أعلنته في مناسبات

كثيرة وفي كتب صدرت ، وأخرى بسبيلها للظهور إن شاء الله رب العالمين .

أحكام الدين كاملة ورفيعة ، باللغة من مستوى القدرة على إسعاد الجنس البشرى ما لا يمكن للفكر الإنساني أن يبلغه حين يزعم التحرر من الأصول والضوابط التي يستمدّها الشرع من الكتاب والسنة ... وهذا الكمال يتنافى مع التطور والتطوير ، وهما من مستحدثات القرن التاسع عشر .. في غمار الثورات .. الثورات التي يقال لها : فكرية ، وعلمية ، وصناعية ، وتكنولوجية ، وثقافية ، واجتماعية ، وسياسية .. إلخ .. وكلها ثورات على أوضاع راسخات .. وبعض هذه الأوضاع سليم وأصيل ... وبعضها فاسد .. ولكنّ الفكر الثوري مندفع بطبعه .. وأمة الإسلام - في محتتها الحاضرة - بحاجة إلى فكر هادئ ومتزن ... وبحاجة إلى الأمن المستقرّ الذي صلحت عليه الأجيال من فجر الإسلام .. وما بها من حاجة إلى التجارب ..

ولقد افترى المستشرقون (وتأثّر فريقٌ من المسلمين بهذه المفتريات) ، افترى المستشرقون حين قالوا إن عمر الإسلام قد كان قصيراً ... لأنه - في زعمهم - انتهى مع الخلافة الثالثة^(١) ولم يعد في الأرض إسلام بعد ذلك ... بل قامت على آثاره دولٌ

(١) ومن المستشرقين من يتفضل علينا بالسير مع الاسلام إلى القرن الرابع للهجرة ثم ينكر على الاسلام وجوده من بعد ذلك ... ألا ساء ما يزرون .

ودويلات .. وإن قيل لبعضها « خلافة » ، لأن الخلافة لا تتمدد
أبداً ... ولأن دولة الإسلام واحدة ، ولكنها ضاعت - في زعمهم -
منذ تحولت إلى ملك عضوض .. افترى المستشرقون إذن ونابعهم
بعض البسطاء .. والحق أن الإسلام (وهو الدين الخاتم) كالشمس
التي تستمد منها الحياة الدنيا مقوماتها ، وما من قوة تحول بين أشعة
الشمس وبين السهل والحزن أو بين اليابسة والماء ... فهي تغمر
الأرض والجو المحيط .. وهي تشرق على دار الإسلام ودار الكفر
دون تمييز .. لأنها من السنن الكونية الثابتة ... ينتفع بها البر
والفاجر ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

نريد بذلك أن ننبه إلى أن نور الإسلام لا يغيب عن الأرض
كلها .. كما لا تغيب الشمس أبداً^(١) . وإنك لتجد من شريعة الله
أثراً هنا وأثراً هناك ... وقد يعترف المنصفون من أهل الكتاب ،
وقد تأخذهم العزة بالإثم .. ولكننا نسوق القول هنا إلى العالم
الإسلامي ... ونكتفي بضرب القليل من الأمثال .. فنقول :

في بعض البلاد الأوروبية (مثل سويسرا) تجبى رسوم التعليم من
أفراد المجتمع كلهم ، وفقاً لقدراتهم المالية ... مع التدرج في
الفرائض ... فبقدر ما يزيد الدخل أو تتعالى الشرائح .. بقدر
ما يثقل الرسم على صاحب الدخل ... فإذا كان دخل زيد من

(١) حين يظلم جانباً من الأرض فإن غيره يكون مشرقاً ... وبهذا لا تنقطع
أشعة الشمس عن الكون كله ما بقيت السهوات والأراضين ، سنة الله ولن تجد
لسنة الله تبديلاً .

الناس عشرين ألف فرنك سويسرى فى العام ، فإن الرسم الذى يفرض عليه يتحدد بنسبة مئوية معينة ، وإذا كان الدخل عشرة آلاف فإن النسبة تقل .. وهذا أصل من أصول العدالة فى توزيع الفرائض المالية التى تذهب حصيلتها لمواجهة نفقات عامة ... وهذا الأصل قد عرفه سيدنا عمر بن الخطاب ، وأسهب فى الكلام عنه القاضى أبو يوسف فى كتابه « الخراج » ، ومع ذلك لا تزال الأمة العربية تصرّ على القول أن التدرج الضريبى هو من ابتكار « آدم سمث » الذى عاش بعد القاضى أبى يوسف بنحو ألف عام^(١) لا تزال الأمة العربية تحرص فى جامعاتها على تلقين الطلاب أن المالية العامة علم يجد أصوله فى الفكر الفلسفى والاقتصادى لعلماء أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ..

ولا تزال الجامعات العربية تسبّح بحمد « جون ستوارت مل » ومن قبله « آدم سمث » ، وترجع الفضل كله ، فى فصل اقتصاديات الدولة عن المادة الاقتصادية ، إلى هذا العهد الذى عاشت فيه مدرسة يقال لها « المدرسة التاريخية » ، ولا يزال المثقفون يؤمنون بأن الأوضاع الإنسانية الراشدة إنما تجد أصولها والفروع (فيما يزعمون) من الفكر الغربى .. قديماً .. ومن الفكر الشرقى حديثاً .. وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم .. وهو قائم لا يزال !! .

(١) القاضى أبو يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة (١١٣ - ١٨٢ هـ أى ٧٣١ - ٧٩٨ م) وأما آدم سمث فقد عاش من سنة ١٧٢٣ إلى ١٧٩٠ م (وبين الأول والثانى ٩٩٢ عاماً .

رسوم التعليم إذن تفرض (في سويسرا) وفق المقدرة .. لا وفق المنفعة .. ويستوى أن يكون دافع الرّسم والدأ لطفل واحد أو لعدة أطفال ... كما يستوى أيضاً أن يكون بغير زوج ولا ولد، أو أن يكون مسئولاً عن أسرة ... فالتعليم العام والثانوى وفروع من التدريب المهنى .. كل ذلك بالمجان للشعب كله ، وفي أرقى المستويات ..

نقول : هذا من الإسلام .. ولا أثر له في بلاد العرب^(١) وإنما تحلّ محله رسوم فادحات من أجل التّعليم ... وتخفيف يسير عن الوالد إن زاد الأبناء على عدد معلوم ... فإن تخطى العدد المعلوم .. فلا تيسير ولا تخفيف : وكيف ينتظر الوالد معونة من الدّولة وهو جاحد لسياستها مناهض لتخطيطها ؟

أو لم يعلم هذا الوالد ، المسرف في الإنجاب ، أن الدّولة كارهة لزيادة السكان عاجزة عن كفالة القوت ... وقد تكفّلت به وحملت مئونه : والله يعلم أن دولة العرب في زمننا هذا هى دولة استغلال وانتفاع .. وهى دولة استعلاء على الأمة الكادحة الصابرة ... وهى دولة جاهلة مكابرة .. ومن حولها مواكب التفاق والسعى إلى الكسب الخبيث .

(١) هذا ما نقرره أسفين .. لأن الدين الاسلامى هو السائد في بلاد العرب ، وفي غيرها زهاء أربعة عشر قرناً .. ومع ذلك نرى من آداب الاسلام وأوضاعه وقواعده .. شتاتاً هنا وهناك .. وأقلّ هذا الشّتات في بلاد تقول إنّ دينها الرسمى هو الإسلام ... وكأنّ الاسلام في حاجة إلى نصّ تشريعى أو اعتراف رسمى ليكون معترفاً به !!

وفي بريطانيا . . . حيث الدراسات متصلة من أوائل القرن العشرين إلى يومنا هذا للوصول بالتضامن الاجتماعي إلى وضع أمثل . . . في بريطانيا هذه وصل الاجتهاد - آخر الأمر - إلى الفصل بين الرّسم الذي يلتزم به الفرد وبين الأمن الذي تكفله له الدولة ، في مرضه وعجزه ، وللسنّ العالية ، وللأسرة بعد فقد العائل . . . كان ذلك في مايو سنة ١٩٧١ حين أجاز مجلس العموم مشروع قانون بما تقدّم بيانه . . . ومعنى ذلك أن جهاز الثمن^(١) لم يعد عاملاً في هذا المرفق الحيوى (مرفق الأمن) بل تعطل جهاز الثمن في هذا المجال (مجال الأمن) وحلّ محله أصل انسانيّ يقول « من كلّ حسب قدرته ولكلّ حسب حاجته » هذا ما انتهت إليه بريطانيا بعد الجهد الجهيد ، وفي ضوء التقدّم الشامل للعلوم وللتنوّع . . . والحق أن هذا ما بدأ به سيدنا عمر عندما دَوّن الدواوين . . . وكان في تنظيمه المالى (وقد تقدّم بيانه) مسترشداً بالكتاب والسنة . . . ولكننا لا نزال نجد الأمن في بلاد العرب يباع ، ونجد العدل الاجتماعى في ركاب السلطان ، ونجد المصاهرة غنماً أو غرماً . . . وكأنّ الإسلام قد جاء للناس كافة إلاّ هذه الأمة التى أكرمها الله بالفصحى فكانت أقدر الأمم على تدبّر القرآن والحديث الصحيح .

(١) جهاز الثمن معادلة . . . رياضية يجرى على مقتضاها توزيع السلع والخدمات وفق الطلب عليها . . . والطلب هنا مؤيد بالقدرة على تقديم العوض أو مما يعرف بالثمن الاقتصادى . . . ولا وجه للاعتراض على جهاز الثمن الا في أمور ثلاثة ، بيانها : العدل والأمن والمصاهرة فلا يجوز في هذه الأمور أن يكون للثمن دور يؤدى إلى اتخاذ قرار والصدول عن آخر .

وفي البلاد الصناعية المتقدمة تتفاوت الأجور مرات
معدودات... فهي مثلاً في سويسرة تتفاوت خمس مرات.. وفي
البلاد الإسكندنافية تتفاوت ثمانى مرات... بمعنى أن أكبر راتب
لا يزيد على أقل راتب إلا في هذه الحدود بين خمسة الأمثال وبين
ثمانية الأمثال... وهذا قريب من الإسلام... أما عندنا في بلاد
العرب فالأجر المقطوع للأجنبي بالغ السخاء.. ولصاحب النفوذ
أجور وأجور تعينه على إعادة عهد قارون.. ولمن حول السلطان
مستويات.. وللكادحين عيش كفاف وعرى وحرمان.. فأما
أساليب البلاد التي يقال لها رأسمالية (مثل سويسرا وبلاد
اسكندنافية) فهي أشبه بالإسلام.. وأما فوضى الأجور في بلاد
العرب فهي تكرار لعهود فرعون وهامان..

وليس هذا المقام مقام توفية لما يرزح تحته المجتمع الإسلامى من
أسباب الشقاء.. وإنما هي إشارة عابرة نريد بها تأييد القول بأن
الإسلام لا يغيب منذ أشرقت الأرض بنور الرسالة الخاتمة.. وفي
وسع الباحث المنصف أن يرى قبساً من نور الإسلام هنا وهناك..
وأقل ما يكون الإسلام وجوداً في زماننا هذا.. في بلاد زعمت أنها
الأمينة عليه والقوامة على ترانه..

كذلك لا نقول بأن هذا الأمر الواقع (من حيث تشتت الأحكام
وأخذ كل أمة بما يطيب لها واطراح ما عداها) لا نقول بأن هذا هو
المنهج القويم... أو هو المقصود بالاتباع: لا نقول بشئ من
ذلك... بل نتلو قول الله تبارك وتعالى «يأيها الذين آمنوا ادخلوا

في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» (١)
والخطاب للمؤمنين والتكليف الصادر إليهم أن يدخلوا في الإسلام
كله ... أى أن يعملوا بجميع شعب الإيمان .. وأن يأخذوا بجميع
شرائع الاسلام .. فلا يخلوا بشئ من أوامره وزواجره ... فإن لم
يفعلوا فما هم أهل للكرامة التي أرادها الله سبحانه وتعالى إذ يقول
في وصف أمة الإسلام « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء
على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » فلا خير إذن في أجيال
من المسلمين يأخذون ببعض الكتاب ويعرضون عن بعض ..
ولا خير في شعوب تقتبس من نور الإسلام شعاعاً تستهدى به في
ظلمات الفكر الحائر .. وتترك الكثرة الكاثرة من أوامر الدين ،
لأنها لا تعرفه ولا تقرُّبه .. وإنما هي الفطرة تتلاقى عليها الأفهام ،
وقد يتشابه بعض الاجتهاد المحض ببعض أوامر الدين ... ولا خير
في البشرية كلها مادامت هذه حالها .. ولذلك نجد نور الإسلام
لا يغيب ، ولكنه نور تفرَّق في الأرض وقعدت الأمة عن جمع شتاته
في منهاج واحد كما أريد لها ، ولقد جاء الذكر الحكيم بالتحذير من
مغبة هذه الفوضى التي يعيش فيها الناس ... قال تعالى ...
« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب
أليم » وفي الفتنة ارتكست البشرية على الرغم من كل تقدّم مادي
مصيبه إلى التراب ...

(١) الآية رقم ٢٠٨ من سورة البقرة .

قال بعض العلماء : لن يجوز أحد الصراط حتى يسأل عن سبع : يسأل عن الإيمان بالله تعالى وبالرسالة الخاتمة ، ثم يسأل عن الصلاة ، فالصوم ، فالزكاة ، فالحج والعمرة ، فالفصل والوضوء ... وهو لا يجتاز سؤالاً إلى الذى يليه إلا إذا وفى .. ثم يسأل آخر الأمر عن ظلمات الناس ... وما أشق السؤال عن الظلمات : وقال حذيفة رضى الله عنه .. فى هذه الآية الكريمة « ... ادخلوا فى السلم كافة ... » قال للإسلام ثمانية أسهم : .. الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج والعمرة ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد خاب من لا سهم له ... فلا ينبغى لمؤمن يرجو رحمة ربه ويخاف عقابه أن يفرط فى سهم من هذه السهام .. أو فى شعبة من شعب الإيمان .

فن كان يحسب أن الإسلام قد استنفد أغراضه لعهد الخلفاء الراشدين .. أو كان يحسب أن الإسلام قد انقضى زمانه بانقضاء القرون الهجرية الأولى فقد أساء الفهم ، وأخطأ القصد من الإسلام ...

ومن كان يظن بأن التلقيق فى الشريعة جائز وأن أحكام الدين ملك مشاع تأخذ منها كل أمة بما تشاء .. فقد ضلّ السبيل .. وهذه هى حال الناس فى هذا الزمان .

والذى نقول به يتلخص فى أن الإسلام باقٍ على كماله .. وأخوف ما يخافه العبد المؤمن أن يكون هذا الدين المتين حجة علينا يوم يقوم الناس لرب العالمين .. وبهذا نكون قد أضعنا الأولى

والآخرة .. ولن ينفعنا إيمان بجئ يوم الحساب .. قال تعالى ، « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً .. قل انتظروا إنا منتظرون » (١) .

فالرأى الذى كنت عليه .. يوم تجاوزت الأصداء فى قاعة الأزهر بمثل هذه الكلمات .. أو بالتصووص الواردة فى موضعها من هذا الكتاب .. هو الرأى الذى أقول به اليوم .. داعياً الله العلى القدير أن يرزقنا الفهم لكل كلم طيب ... وأن يرزقنا الإخلاص فيما أسررنا وفيما أعلننا .. إنه على كل شيء قدير .

بقيت إشارة إلى التمهيد الذى أضفناه عن البنية الاقتصادية أو البناء .. ولولا أن موضوع المحاضرة كان كثير الشعب .. لكان حتماً أن نبدأ - يوم التأم الجمع بالقاعة الكبرى - بكلمة شارحة لماهية البناء الاقتصادى ، والموازنة بينه وبين غيره من المفاهيم التى تكاد تلتبس به ...

وإذ أراد جلّ شأنه أن أرفع القلم من جديد لتصدير هذه المادّة .. فقد تعيّن استدراك ما فات ... ومن ثم كان التمهيد الذى أضفناه ،

وكل شيء عنده بمقدار .

المؤلف

الكويت فى صيف سنة ١٣٩٢ هـ

(١) الآية رقم ١٥٨ من سورة الأنعام .

مفاهيم اقتصادية

البناء الاقتصادي

حين نقصد إلى تقريب الثقافة الاقتصادية من القراء... فإننا نحصر على الإقلال من ذكر المصطلحات العلمية قدر الإمكان، حتى لا يزهّد الناس في الاطلاع على ما يخرج عن اختصاصهم... والحق أن المادة الاقتصادية شديدة التداخل في حياة كل فرد منا... ولا تكاد تخلو منها معاملة واحدة من ألوف المعاملات التي ندور في فلكها كل يوم... وهذا الذي يجري من حولنا، ولا نلقى إليه بالاً، هو المقصود بالتقريب إلى القارئ... في تمهيد موجز لموضوع الكتاب..

نريد أن نتكلم عن « البنية الاقتصادية » أو البناء الاقتصادي... وعن الأحداث الاقتصادية... ونريد أن نرجع الفضل في ذلك كله إلى أصحابه... حتى يرجع الدارس المتخصّص إلى المظان الوثيقة، ليستزيد، ولعله يضيف شيئاً يزيد المعنى وضوحاً.

فأما البناء الاقتصادي *Structure economique* ففهوم معنوي يتألف من النسب والصلّات القائمة بين القطاعات الرأسية والقطاعات الأفقية للمجتمع... كما يتألف من النسب والصلّات القائمة بين الحرف والمهن وأرباب الأعمال والمشتغلين بالأجر لحساب غيرهم... وبين أصحاب الدور والسكان بالإيجار... وبالجملّة: كل نسبة بين جماعة وأخرى، وكل صلة من هذه الجماعة وتلك تعتبر عنصراً من العناصر المكوّنة للبناء الاقتصادي... كما يدخل

العنصر المادى الملموس (كالأسمنت والحديد وغيرها) فى تكوين هيكل متماسك يقال له : دار ، أو عمارة ، أو طريق ، أو سفينة أو طائرة ... هذا بناء وذلك أيضاً بناء .. وكل ما فى الأمر أن أحدهما ملموس ومنظور ، تدركه الأسماع والأبصار ... والآخر مفهوم معقول ، تدركه الفهوم والبصائر .

ذكر الأستاذ فرانسوا بيرو François Perroux ^(١) أنه قبل المحاولات المبكرة لمعهد الأبحاث العلمى الذى كان يرأسه شارل رست Charles Rist ^(٢) لم يعرف عن البناء الاقتصادى لفرنسا إلا الشيء القليل .

وكذلك حاول آخرون .. ومنهم فاجمان Wagemann (فى كتابه عن الاستراتيجية الاقتصادية) أن يعرض لهذه المفاهيم .. ولكن الآراء التى أبدأها لم تكن فى المستوى الذى وصل إليه آخرون .. ولذلك لم يقتنع بها بعض لدارسين للاقتصاد . من المعاصرين ^(٣) . وفى المراجع الإنجليزى آثار جديدة بالنظر .. منها ما أورده الأستاذ هيكس Hicks وهو عالم بريطانى معاصر .. فى كتابه عن

(١) فرانسوا بيرو أستاذ فرنسى من رجال الكوليج دى فرانس .

(٢) شارل رست عالم فرنسى فى الاقتصاد وزميل لشارل جيد الاقتصادى الفرنسى المعروف ولكن رست عاش إلى عام ١٩٥٧ ، وتفرد بعد وفاة زميله بدراسات قيمة لما يزيد على ثلاثين عاماً .

(٣) راجع رسالة الدكتوراة للدكتور جاد ليب (بناء الاقتصاد المصرى) بإشراف الأستاذ M. Dye جامعة باريس .

إطار المجتمع **The Social Frame work** وما أورده آرثر لويس **Arthur**
Luwis في كتابه عن نظرية التطور الاقتصادي « **The Theory of**
Economic Development »

وجاء الأستاذ الإيطالي براشيانى تيروني ^(١) **Brciani Tironi**
بمحاولة خاصة لدراسة البناء الاقتصادى لمصر .. ولكن عمله هذا
كان عارضاً ... إذ كان فى دراسته لاقتصاديات مصر متجهاً نحو
النظر إلى أثر الاعتماد على محصول واحد (هو القطن) على
اقتصاديات الاقليم ... ومن ثم جاءت هذه الدراسة العارضة
بالقليل من البيان المطلوب عن البناء الاقتصادى المتكامل .. على
نحو ما ذكرنا من قبل .

وفى مطبوعات هيئة الأمم يحىء ذكر البناء الاقتصادى بين الحين
والحين .. وبخاصة عند دراسة الخامات وتصديرها وأثر ذلك على
المستوى الاقتصادى فى البلاد المتخلفة .. ولولا هذه التقارير
الدورية .. لكان نصيب البلاد المتخلفة من النظر إلى البنية
الاقتصادية لكل منها .. قليلاً أو منعماً .

أما الشبكة الاقتصادية **Conjoncture économique** فهى المصطلح
الثانى المصاحب للبناء .. والمقصود بالشبكة .. هو مجرى الأحداث
المترابطة .. من وقائع ومعاملات .. ومن تصرفات تصدر عن

(١) عالم ايطالى اشتغل بتدريس الاقتصاد فى جامعة فؤاد الاول (لاول عهدها)
فى العقد الثالث من القرن الحالى وهى جامعة القاهرة فيما بعد .

الأفراد أو عن السلطات العامة .. وكل ذلك في عالم الاقتصاد .
ومن الأمثلة على مجرى الأحداث بين يدي الأفراد : الطلب على
سلع الاستهلاك والخدمات .. والادّخار وتوظيف الأموال المتاحة
للاستثمار ... ومن الأمثلة على مجرى الأحداث بين يدي السلطات
العامة : مشروعات التعمير والنفقات من أجل إشباع الحاجات
العامة (كالعدل والدفاع والأمن) والقرارات التي تحدّ من حرية
الفرد في الاستهلاك .. كزيادة الرسوم الجمركية على واردات معينة
أو منعها أصلاً أو إخضاعها لنظام الحصص وللتبادل الثلاثي ^(١)
ووضع القيود على السفر من أجل السياحة أو الهجرة .. كل هذه
أمثلة على مجرى الأحداث الاقتصادية .. وما قيل عن الأفراد وعن
السلطات العامة .. يقال أيضاً عن الدوائر الأخرى في المجتمع ...
كالشركات والهيئات والمؤسسات .

وفياً بين البناء والشبكة فروق واضحة ... أهمها : أن البناء
مستقرّ في المدى القريب والمتوسط ... ولا يكون تغييره إلا بطيئاً
هادئاً وغير ملموس .. على حين أن مجرى الأحداث خاضع لتقدير
الفرد والمجاعة والسلطة العامة للتوقعات الاقتصادية ... ولذلك
يسهل إدخال التغيير السريع على الأحداث المترابطة (أى على
الشبكة) .. كما يسهل على المجتمع إعادة تشكيلها بإحداث تغييرات

(١) نظام مستحدث في التجارة الدولية .. تدخل فيه ثلاثة أقاليم لاتمام عملية
معينة من عمليات الوارد والصادر ... وقد جاء في أعقاب تزايد القيود على
التجارة الدولية .

سريعة ومتلاحقة في اتجاه واحد .

ولنضرب مثلاً بتحويل الإضافات الرأس مالية من ميدان لآخر .. فنقول : قد يتبين للسلطات المختصة أن مرفق الإسكان يواجه أزمة أخذة بالتفاقم .. فتعتمد هذه السلطات إلى التماس الوسائل التي تشجع الناس على إقامة المساكن .. وذلك بالإعفاء من عوائد المباني وتخفيض الرسوم الجمركية على الوارد من مواد البناء وتخفيض رسم الإنتاج إن كان مفروضاً على الصناعات المحلية لمواد البناء ولوازمه والتوسع في مرافق الإنارة ورصف الطرق على حساب الدولة .. إلخ .. وهذه كلها أحداث مترابطة .. تأخذ سمتها نحو هدف واحد هو زيادة المعروض من وحدات المساكن .

واضح مما تقدّم أن البناء والشبكة يفترقان في الحاضر وفي المدى القريب .. ويبقى كل منهما وكأنه بمعزل عن الآخر .. ولكن مع مضي الزمن نجد الشبكة تؤثر في البناء .. فثلاً إذا رأى المجتمع أن النشاط الصناعي أجدى من النشاط الزراعى ، فإنه يعمد إلى وضع خطة تؤثر في الأحداث تباعاً ومع التكرار .. حتى تتراكم الآثار اليسيرة التى تصاحب الشبكة من يوم إلى يوم ومن عام إلى عام .. فتكون بعد سنوات أو عشرات من السنين أداة تعديل هادىء في البناء الاقتصادى .. وإذا بنسبة المشتغلين بالصناعة إلى جملة العاملين .. ترتفع عما كانت عليه من أعوام أو من عشرات الأعوام مثلاً .. ومن ثم يكون التغير الهادىء البطيء في البنية الاقتصادية قد جاء نتيجة للتغيرات اليسيرة التى أدخلتها القرارات ، تباعاً ، على مجرى

الأحداث ..

ومن ذلك مثلاً : تشجيع الشباب على دراسة الحرف والصناعات بإلغاء الرسوم الدراسية والإكثار من المنح للدارسين وفتح الأسواق للنتائج من الصناعات الحديثة .. وإقامة المعارض الدورية .. وهذه كلها إجراءات تؤتي آثارها تدريجاً وتؤدي ، مع الوقت إلى تعديل البناء الاقتصادي .

نحن إذن نتكلم عن الهيكلية العامة للمجتمع ونركز على التركيب الاقتصادي لهذه الهيكلية .. كما نتكلم عن التيارات التي تجري في داخل هذه الهيكلية وما هي إلا جملة التصرفات الاقتصادية ، الصادرة عن الفرد بإرادته .. أو الصادرة عنه بتوجيه أو بإلزام من السلطات العامة ..

وهذا كله من الدراسات الحديثة نسبياً ، خلال القرن العشرين ، ولكنها دراسة كاشفة لأمر مستقرة من الأزل .. غابت عن الناظرين ، وحرص عليها الإسلام فأقام البناء في تماسك .. وشجع الطيب من التصرفات كالإنفاق العادل ... وحرّم الخبيث من التصرفات .. كالمعاملات الربوية .

وَضْعُ الرِّبَا فِي الْبِنَاءِ الْاِقْتِصَادِيِّ

القسم الأول^(١)

تمهيد :

أما بعد ، فهذا حديث عن الربا . . الربا من حيث موضعه في بناء الاقتصاد القومي . فما هو الربا ؟ وما هو الاقتصاد ؟ وما هو البناء ؟ .

البناء في المجال الاقتصادي على وجه العموم ، وفي المجال القومي على التخصيص ؟

هذه هي المفهومات التي يطالعا بها عنوان المحاضرة ، ومن ثم فإنه يتعين عرضها بإيجاز حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نتلمس الموضع الذي يشغله الربا في المجال المحدد لنطاق البحث .

وفي خصوص المعاملات الربوية ، وردت في كتاب الله سبحانه وتعالى ، وفي سنة نبيه - ﷺ - طائفة من الأحكام . ومن الطبيعي أن أتعرض لها بالقدر اللازم في سياق هذا الحديث .

وقبل أن أتخذ خطوة كهذه ، أو أن أبين رأيي في هذا الأمر : أي

(١) كان إلقاء هذه المحاضرة بقاعة الإمام محمد عبده بالجامع الأزهر في ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩/١٠/٢٧) .

في جملة الأحكام التي قررتها الشريعة الإسلامية بخصوص الربا ،
وبخصوص المشكلات الاقتصادية وما يتصل بها من شئون تقع من
بعيد أو من قريب في المجال الذي شغلني عشرات السنين .

وبالتالي فإن ما أقدمه في هذه المحاضرة من قول لا هو عفو
الساعة ، ولا هو مجرد فرض أتكهن به ، لعله يثبت على البرهنة ، بل
هو رأى بلغ مرتبة اليقين .

أحكام الإسلام :

في رأى أن الأحكام التي جاء بها الدين الحنيف ، لا تقبل
التطور ولا التطوير ، لأن التطوير أسلوب تقدمي ، يستهدف الترقى
إلى مستويات فوق ما هو كائن أو مألوف ولا يصح القول بالترقى
إلا منسوباً لأمر مشوب .

بمعنى أنه لابد من ظاهرة يكتنفها النقص أو العجز ، ومن ثم
يكون التكمّل والإستيفاء ، ولابد من أمر أو حكم متواضع حتى يجوز
عليه التهذيب والترقى .

ولما كانت أحكام الإسلام مستمدة من القرآن ، أو تجد ضوابطها
من آيات الله البيّنات إذا كان مصدر الحكم بخلاف النصوص
القرآنية ، كالحديث والإجتihad .

ولما كان القرآن هو كلام الله القديم وأنه من عند عالم الغيب
والشهادة ، فإن أحكاماً كهذه ، بل فإن هذه الأحكام على سبيل

المحصّر، قد تميزت على كل حكم أو رأى من قول البشر بأنها تنزلت كاملة شاملة، ومتفردة بالثبات الأبدى الذى يجعلها وحدها المعيار الصالح الذى تقاس به الظاهرات، وتوزن به الآراء والأحكام، لبيان ما فى إجتهد الإنسان من توفيق أو من فساد.

أحكام الإسلام إذن بدأت منزّهة عن النقص والعجز، وهى، من أجل ذلك، غير قابلة للتكامل ولا التوفية.

وأحكام الإسلام إذن بدأت رفيعة القدر، لتكفل للناس كافة، مستوى من الحضارتين المادية والفكرية فوق كل ما يخطر على قلب بشر، ولذلك لا يصح أن يضاف إليها دعوى التطوير بحجة الضرورة الملزمة أو تحقيق المصلحة، لعلها إذا تطورت، كانت مسيطرة لمستويات من الحضارة، ولأنواع من المعاملات لم تكن معروفة لعهد نزولها.

أما علم الإنسان فهو الذى يجوز عليه التطور والتطوير. وأما المخزن من المعرفة من مشاهدات الإنسان وتجاربه، جيلاً بعد جيل، فهو الذى يصح نسبة النقص إليه، ومن ثم يكون التكامل، ويكون الاستيفاء.

الاستدلال إنما يكون بالأسلوب العلمى :

ولنا أن نتساءل : كيف يستقيم الأسلوب العلمى فى البحث عن مدى الملاءمة بين مجموعة معيّنة من الأحكام، وبين التطور الحضرى الدائب، إذا كنا نبدأ القول برفع هذه الأحكام إلى مرتبة العقيدة ؟

ذلك أننا نتناول في موضوعنا هذا بضعة أحكام خاصة بالمال ، وهو بعض المتاع في هذه الحياة الدنيا ، وجاءت بشأنه آيات بينات ، ولا نتناول في بحثنا هذا حجية الكتاب وقدمه .

وأحكام الأموال ، بما فيها أحكام الربا ، هي فرع على أصل .
وحين نقول بثبوت الأصل ، فإن الفرع يكون ثابتاً بداهة ، ولا يجوز عليه التأويل كما لا يجوز عليه التعطيل بحجة المصلحة أو الضرورة .

ومع ذلك فلنتنظر إلى بعض أحكام الأموال نظرة موضوعية خالصة ، دون أن نتأثر بجلال مصدرها ، قال تعالى في سورة البقرة :
« ويسألونك ماذا ينفقون قل : العفو » .

وقال أيضاً في سورة الأعراف : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين »

في هاتين الآيتين الكريمتين جاء ذكر « العفو » مقروناً بالإنفاق مرة ، ومقروناً بالأخذ أو بالتلق والقبول مرة أخرى .

وقد صرّفها المفسرون على أوجه كثيرة تشهد لهم بحسن النظر ، وبالإحاطة بفنون الكلام مع الحرص على جميع الروايات ، ما كان منها متواتراً وما كان موقوفاً وما كان محل إجماع أو دون ذلك .
ومن بين هذه الأقوال ، ما يصرف الحكم إلى فائض المال أو اليسير منه ، وحذّه امتناع الإرهاق .

وللمفسرين أقوال أخرى معلومة ، ومنها صرف القول إلى الصفح والمغفرة . وأن الآية الواردة في سورة الأعراف قد جمعت مكارم الأخلاق ... وكل هذا حسن .

إلا أن الرأي الباهد يصرف لفظة العفو في كل من الموضعين إلى اليسير من المال أو الزائد على الحاجة ، بحيث أن إنفاقه لا يوجب ، وبحيث أن أخذه في صورة زكاة أو مساهمة في تجهيز غزوة ، مثلاً ، لا يوجب أيضاً . ولهذا الفهم سنده من أقوال المفسرين الأعلام ، وهو إن كان قد ورد مع غيره من وجوه التفسير إلا أننا سنصرف النظر عما عداه ، فنقول : الله جلّت قدرته يعلم أن المال من زينة الحياة الدنيا ، وأن إخراجه بغير عوض معجل أو حاضر هو من الأمور التي لا تنشط إليها الهمة . ولذلك حثّ على الإنفاق ، ووعد بالأجر المضاعف في عديد من الآيات .

إلا أن كلاً من الأخذ (كأخذ الزكاة) ، والإنفاق (كالإنفاق في سبيل الله من صدقة ونحوها) ، يجب أن يخضع لمعيار ثابت تطمئن إليه النفس البشرية ، فلا تجزع من تقرير الفرائض المالية التي تنتقص بحكم اللزوم من المال الخاص بغتة ومن غير ضابط .
فأما هذا المعيار الثابت فهو أن يكون حدّ المال المخرج « عفواً » بمعنى « زائداً » .

وفي القاموس أن العفو من المال هو أحله وأطيبه ، ومن الماء ما فضل عن الشاربة .

فأما قصر الأخذ على أحلّ المال وأطيه فلا يتفق مع بقية الأحكام الواردة في القرآن ، ولا التطبيقات التي إرتأها السلف الصالح ، قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها »^(١).

فإذا كان صاحب المال يخرج بعضه ليطهر نفسه وليزكّيها - إذا شاء الله - فإنه ليس خطأ أن يكون ماله في الأصل ، هو أحلّ المال وأطيه . وفي سورة التوبة قوله تعالى : « ... حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وفيما جمعه القاضى أبو يوسف في كتابه (الخراج) قوله : « وأما قوم من أهل الشرك صالحهم الإمام على أن ينزلوا على الحكم والقسم ، وأن يؤدوا الخراج فهم أهل ذمة ، وأرضهم أرض خراج ، فيؤخذ منهم ما صولحوا عليه ، ويوفى لهم ولا يزداد عليهم .

إذن أخذ المسلمون الجزية كما أخذوا الخراج ، ولا محل للقول بأن المال الذى أخذت منه هذه الفرائض قد كان من المال أحله وأطيه .

وقد يحتجّ على هذا القول بأن الضمير في قوله تعالى : « خذ من أموالهم ... » وفي قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون » إنما ينصرف إلى أتباع سيدنا محمد ﷺ .

إلا أنه يلاحظ أن سيدنا عمر ، وهو أول من دَوّن الدواوين ، قد

(١) الآية ١٠٩ من سورة التوبة .

اتبع مفهوم لفظة « العفو » بمعنى الزيادة أو البقية أو الفضل ، في فرض الجزية ، فأعفى المسنّ والمرأة والطفل والمريض ، على أساس العجز أو امتناع توافر ما يؤخذ منه ، وهو العفو من المال كما اتبع في فرض الخراج تدرجاً يحقق من العدالة ما يتفق وأخذ الفريضة من فائض المال . ومن ثم فإن الحكم عام ، ويتعين النظر إلى فائض المال وهو « العفو » عند وضع المبادئ التي تعين الأوعية المالية ، سواء في ذلك أكانت هذه الأوعية المالية لمسلم أم لدمي .

ومما تقدم يمكن القول باطّراح أحد المعنيين الواردين في القاموس ، وهو القول بأن العفو من المال هو أحله وأطيبه في خصوص ما نحن بصده من تحديد معنى العفو في الآيتين الكريميتين .

وبقى أخيراً المعنى البدهي الذي يتفق مع سياق القول في كل من الآيتين الكريميتين ، والذي يتفق أيضاً مع بعض الوجوه التي قال بها المفسرون ، وما فهمه سيدنا عمر ، وهو أن لفظة « العفو » في الموضوعين ، ترمز إلى فضلة من المال ، أو زيادة يكون أخذها أو الأخذ منها في حدود الطاقة بحيث يكون الحرمان منها محتملاً .

فلننظر إذن إلى لفظة واحدة وهي لفظة « العفو » لنرى ما انطوت عليه من تحديد الوعاء الذي يغترف منه ولي الأمر لتحقيق المصالح العليا للمجتمع ، ولتحقيق المصالح العامة أيضاً ، وهذا الوعاء بذاته هو الذي يندب الإنفاق منه في سبيل الله ، وبيان ذلك :

بقيت هذه الآية الكريمة بنصها وبحكمها أربعة عشر قرناً من

الزمان دون إضافة أو حذف ، لتقرر حكماً ما في شئون المال ، وهذا الحكم هو المستقر في مفهوم قوله تعالى في وصف الوعاء الذي يؤخذ منه ، بلفظة مفردة هي « العفو » .

ولكن ما هي الأدوار التي مرّ بها الفقه المالى بعيداً عن حكم القرآن ؟

كانت الأموال الخاصة تصادر ، وكانت الفرائض تجبى بطرق بدائية في ظل الإقطاع ، وكانت الأرض ومن عليها تعهد إلى المفاولين (ويعرفون في التاريخ بالملتزمين) لقاء عدد من أكياس الذهب أو الفضة تقدّم إلى الخزانة العامة ، أو إلى جيب الوالى أو الأمير أو المحاكم ... وليطلق الملتزم بعد ذلك عماله وأعوانه لتحصيل الفرائض والمكوس بالعنف وبالقسوة ، ومن الصور التي حفظها التاريخ لهذا العنف ، الضرب بالسياط ومصادرة المنقول من قوت أو ماشية ، ولذلك كانت الإدارة المالية نوعاً من التخريب والفضى . وسادت هذه الحال في الغرب ، ومن أسف أنها عرفت في بلاد المسلمين بعد أن مال الميزان حول القرن الرابع عشر ، وزادت في عهد المماليك في ظل الدولة العثمانية .

ولكننا نريد أن نقرب من نور علم الإنسان ، وقد ظهرت أماراته في أواخر القرن الثامن عشر ، وفي أوائل القرن التاسع عشر ، بمناسبة التكل الأوروبي والبريطاني لملاقاة نابليون ، عندئذ عرفت الضرائب المنظمة لأول مرة في تاريخ الغرب ، ونشط علماء الاقتصاد لوضع نظريات الفرائض المالية ، فقالوا أولاً : « بنظرية

المنفعة» .

وتتلخص هذه النظرية في أن حق الدولة على الرعية إنما يقرره ذلك القدر من النفع الذى يعود على الفرد من مباشرة الدولة لوظيفة عامة معينة .

ولئن كانت هذه النظرية قد تحاذلت وأفسحت لما هو خير منها ، إلا أن لها بقية ورثها القرن العشرون ، ولنضرب مثلاً بمحدد ماهيتها - وجدير بهذا المثل أن يكون واضحاً كل الوضوح لأنه يجلو واحداً من القيود الفكرية التى ورثها القرن العشرون من العصور الخالية .

ففى رسوم المرور يدفع صاحب سيارة النقل سبعين جنيهاً - تقريباً - فى السنة ، على تفاوت يسير لا يمس الجوهر . ويدفع صاحب السيارة الصغيرة عشرة جنيهات فى السنة . وهذه الرسوم تجدد علتها فى انتفاع كل من الأول والثانى بالطرق وبتنظيم المرور .

وأساس الإثقال على سيارة النقل هو أنها تستهلك الطريق وتشغله بما يزيد أضعافاً على ما يتأتى من السيارة الصغيرة .

إذن صاحب سيارة النقل ينتفع من الطريق العام بأضعاف ما ينتفع الآخر ، وتقضى العدالة - فى نظر المؤمنين بنظرية المنفعة - بهذا التفاوت فى أوزان الرسوم .

ولا يمكن لفقهاء المال أن يسكتوا عن تبرير هذا الأسلوب المجافى للعدالة ، ولذلك نراهم يقولون بأنه لا يجوز الخلط بين الرسوم وبين الضرائب .

فالرسوم تجبى لقاء خدمة أو منفعة معلومة بذاتها . على حين أن الضرائب تجبى دون نظر إلى مقابل معين بذاته . ويرتبون على هذا الجدل أن تأسيس الرسوم على نظرية المنفعة لا غبار عليه . وفي هذا الدفاع شبهة من الوجاهة ، ولكننا حين ندرس رسوم الجمارك نجد أنها تثقل على الضعيف ، وتخف عن الغنى ، وبالتالي تخرج عن مفهوم العدالة في توزيع التكاليف في بعض الحالات (كما في رسوم التبغ) وإذا سئل فقهاء المال فإنهم يقولون : هذا باب هام من أبواب الإيراد لا يمكن أن نلتزم فيه بتطبيق نظرية القدرة - وهى أحدث النظريتين - ويكفى لصعب هذه الفريضة بصيغة العدالة اللفظية أن نطلق عليها هذه التسمية : « رسوم » وبعد ذلك نكون في حل من قيود العدالة المطلقة .

وكل ما تقدم من أقوال فقهاء المال ، بخصوص رسم السيارة ورسم الجمرك ، لا يثبت على النقد حين يرد إلى المعيار الإلهي في قوله تعالى : « خذ العفو » ولكن مجال الحديث لا يحتمل مزيداً من الإطالة في هذا الخصوص ، وإنما نضرب الأمثال على ثبات حكم الإسلام في مستواه الرفيع من ضمان العدالة الاجتماعية ، وتعثر العلماء في اجتهدهم ، وفي هذا بلاغ .

لم تكن « نظرية المنفعة » إذن بقادرة على مواجهة النقد المؤسس على تفسير لفظة العدالة فوقف العمل بها - إلا في حالات أشرنا لبعضها - وقال الفقهاء بنظرية القدرة ، أى قدرة الفرد على إمداد الخزانة العامة ، ببعض ماله الخاص .

وفي آخر القرن التاسع عشر كان الفقه المالى قد بدأ يتكوّن ، كما كان علم المالية العامة قد انسلخ من علم الاقتصاد وكان من قبل فرعا منه .

ونشطت الأقسام المقتدرة لتحديد الضوابط والمعايير التى تؤدى إلى تحديد قدرة دافع الضريبة ، خلال القرن التاسع عشر ، إعمالا « لنظرية المقدرة » .

واتجه الرأى بادئ ذى بدء إلى تقرير نسبة مئوية واحدة مثل (٥ فى المائة) ، ثم تبين أن استقطاع خمسة جنيهات من صاحب المائة فحسب هى أشد إيلاما من استقطاع خمسين من صاحب الألف ، مع وحدة النسبة المقررة للضريبة .

ومن ثم فإن النسبة الموحدة ، لا تحقق العدالة ، ففيل بالتصاعد والتدرج ، لتقريب وقع الضريبة على كل من الغنى والفقير .

... ثم تبين أن صاحب الألف قد يكدح ويشق فى سبيلها كصاحب المهنة مثلاً ، على حين أن غيره من أصحاب الألف أيضاً (كإيراد سنوى) يحصل عليها بغير عناء لأنها تجبى من مورد ثابت كأرض أو عقار ..

وهكذا تبين مرة أخرى أن التصاعد وحده لا يحقق العدالة على وجهها الصحيح ، فدخل التفاوت على الفئات لإثقال التكليف على صاحب الإيراد الثابت ، وتخفيفه عن صاحب الإيراد المكتسب .

ولكن الظروف الاجتماعية لـ « زيد » من دافعى الضرائب ،

لا تطابق حتماً ظروف غيره . فن المولدين من لا أسرة له ، ومنهم من ينوء بالتبعات للأهل والولد . . . ومن ثم قيل بالتخفيف المعين المهدود ، على أساس تقرير ما يعرف بالإعفاءات من أجل نفقة ملزمة لوالد شيخ ، مثلاً ، ولنفقة الزوج والولد ، على تفصيل لا يدخل فيما نحن بصدده .

ولئن كان « آدم سمث » أستاذ المنطق والاقتصاد في الربع الثالث من القرن الثامن عشر قد وضع أسس الضريبة العادلة ، وهو بصدد الكلام عن اقتصاديات الدولة قبل تجنيب هذه الاقتصاديات في فرع خاص يعرف بالمالية العامة - إلا أن القرن التاسع عشر كله قد شهد التطور الرتيب في سبيل تحديد هذا المفهوم الذي تؤمله الإنسانية المتحضرة حضارة مادية خالصة ، ألا وهو العدالة في توزيع التكاليف المالية على أفراد الرعية .

ولم يكن للأسرة حساب يذكر قبل السنوات الأولى من القرن العشرين ، وكان ذلك تحت ضغط الوعي الذي انتشر في صفوف الجماهير ، وغالبيتهم من العمال والصناع الذين ذاقوا الأمرين في مراحل التصنيع التي جرت بأوروبا وإنجلترا والولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر على وجه الخصوص .

ومن ثم نجد البحوث المبكرة في شؤون الأسرة وواجبات رب الأسرة وحقه في المزيد من الإعفاءات والمزيد من الأجر ، تطالعا في مستهل القرن العشرين لا قبل ذلك .

في خلال قرنين من الزمان ، إذن ، وفي عصر الحضارة المادية

الحديثة والحضارة الفكرية الباهرة ، تطورت النظريات المالية لتصل إلى استكمال المعايير التي تؤدي إلى فهم لنظرية المقدرة . أو نظرية القدرة على الدفع .

وجدير بالذكر هنا أن ما قال به العالم الإنجليزي « آدم سميث » ، وما زاده من بعد كثيرون من علماء الاقتصاد والمالية من أمثال « جون ستيورات مل ، وباستايل ، وسيدجويك » وهم جميعاً بصدد استكمال هذه المعايير ، قد ورد بوضوح في القواعد التي وضعها الخليفة الثاني سيدنا عمر . وقد جمع أبو يوسف في القرن الثاني للهجرة ما انتهى إليه من آثار السياسة المالية لعمر فإذا بها تسبق الغرب بما يقرب من ألف عام !

ولم يكن لهذا الخليفة العظيم ، من معلم سوى القرآن ، فقد فهم ماهية « العفو » في شئون المال ، فاهتدى بنور القرآن ، وعرف الإغفاءات ، كما عرف الضريبة الصاعدة .

ولو أننا عرضنا الفقه الضريبي والنظرية المالية ، في أرقى المستويات التي وصلت إليها إلى الآن ، لوجدناها تكاد تقترب من المعيار الذي حددته الآية الكريمة : « خذ العفو » ، لأن المال لا يكون فائضاً عن حاجة من يخرج عنه طوعاً أو كرهاً ، إلا إذا روعيت حاجته وحاجة عياله ، ووسائل تكسبه ، أهى رخيصة هيئة ، أم شاقة مجهد ، وجملة إirاده ، أهى كافية لمواجهة ضروريات الحياة أم هى مقصرة عن الوفاء بها ؟ ... إلخ .

وإن المرء ، حين يتأمل قوة هذه اللفظة وثباتها وما توحى به من

المعاني اللصيقة بها بحكم اللزوم ، حتى يتحدد المدلول الذى ترمز له وهو فائض المال الذى يكون محلاً للفرائض . . . أقول بأن المرء حين يطيل النظر على هذا النحو فإنه يقترب عندئذ من فهم وجه واحد من الوجوه التى يحمل عليها قول الله تعالى ، فى سورة لقمان : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يُمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم » .

وقوله تعالى فى سورة الكهف : « قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » .

والحق أن كلمة واحدة وهى كلمة « العفو » فى موضعها من الآيتين الكريمتين ، لشديدة الإبانة عن كثير من كلمات ربى .

وما على القارئ إلا أن يصفى إلى الكلمة الواحدة ، فإذا هى تحدّثه بكلمات تجلّ عن الحصر .

وعند هذا الحد من القول قد يبدو وكأن مفهوم الآية الكريمة : « خذ العفو » قد تجلّى على التلاوة بشئ من الإمعان ، ولكن هذا الظن لا يخلو من التسرع ، فلا تزال المعانى العلمية الدقيقة تحف بالنص من كل جانب . . .

إذن فلنرجع للتلاوة من جديد :

« خذ العفو » والعفو كما انتهينا إليه فيما تقدم : هو الفائض الذى يكون الحرمان منه محتملاً .

فإن كان لابد من الأخذ الموجه فليكن بأقدار متساوية عند كافة

أفراد الرعية . والتسوية في الحرمان تقضى بتفاوت الفرائض من زوايا كثيرة ، كما تقضى بالتفاوت في الإعفاءات كما قدمنا . وكل هذا حسن جميل ، وتطمئن إليه النفس ، ولكن هنالك معيار آخر تدل عليه الآية الكريمة ، ولا يقل أهمية عن كل ما ذكرناه ، وبيان ذلك : أن المال لا يكون « عفواً » بمعنى : زائداً أو فائضاً ، إلا إذا ارتفع فوق المستوى الحدى لتكلفة المعيشة على صورة إنسانية .

ومؤدى ذلك أن حكم الآية الكريمة يوحى بوجود مستوى من العيش لا هو بالكفاف ولا هو بالغ حد الإتلاف ، ولكنه وسط بين هذين الحدين .

والآية الكريمة تفسرها آية ، والقانون يفسره قانون ، والمادة من القانون تفسرها مادة أو مواد ، وإعمال بعض الأحكام مع بعضها الآخر أولى من إعمال كل منها في معزل عن غيرها .

هذه أساليب مسلّمة في الاستدلال العقلى على المفهوم الصحيح للأحكام ، ولذلك تتلو قول الله سبحانه وتعالى (من سورة الفرقان) : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً » .

ثم نقف عند حد قوله تعالى : « قواماً » ونجد أن هذه اللفظة في موضعها من الآية الكريمة ، تضع المعيار الثابت لحد الاعتدال في الإنفاق على الشؤون الخاصة بالمعيشة العادية ، وهذا الحد من الإنفاق هو الذى يكفل المستوى الوسيط من العيش ، الذى يستنفذ من المال قدرأ يكون ما فوقه « عفواً » يؤخذ منه ، أو يؤخذ كله .

إذن الآية الكريمة : « خذ العفو » تحمل في طياتها حكماً بأن لكل إنسان مستوى من العيش الذى يحفظ عليه إنسانيته وهذا المستوى مصون بأمر الله ، ولا ينبغى لولى الأمر أن يمسسه ، لأنه أمر بأن يأخذ العفو أى ما زاد (أو مما زاد) على القدر الضرورى لمواجهة تكاليف الحياة دون تقتير ودون إسراف .

فإذا سلّمنا بأن الآية الكريمة تشير إلى المستوى المذكور ، فإن قضية هامة تجبّ بالتبعية ، أو بالقياس العكسى ، وذلك أن ولى الأمر حين يأخذ « العفو » يحفظ على الفرد - الذى يؤخذ منه - مستواه الإنسانى ، وذلك بالكف عن المساس بما دون العفو ، إنما يفعل هذا كله فى سبيل المصلحة العامة ، وصوناً للمجتمع من فساد الإسراف ، وتمكيناً للدولة من مواجهة نفقاتها العامة ، وكل هذا جلىّ وصحيح .

إلا أن هذا المستوى الذى حددته الآية الكريمة ليكون حصناً لما تحته من مال ، ما خبره عند الفقراء الذين لا ترقى مواردهم إلى مجرد مستوى الإعفاء ، أى الذين لا عفو عندهم ، ولا مادون العفو ؟ وهل يجوز لنا أن نفهم بأن حكم الآية قد نزل لتنظيم الشئون المالية للقادرين على الدفع وحدهم ، ومن أموالهم يكون الأخذ ؟ أم هل يجوز لنا القول بأن المستوى المصون من العيش ، هو فى نظر ولى الأمر وقف على القادرين ، فأما من عداهم فهم كم مهمل .

وهل عرف عن أحكام الإسلام أنها تكيل بمكيالين؟

معاذ الله! فإن عدله سبحانه وتعالى يأبى ذلك...

إذن ما دمنا قد وصلنا إلى القول بأن ولّى الأمر ينظر بنفسه وبأدواته التي يستعين بها على الحكم في الشئون المالية للناس حتى يطمئن إلى تحديد المستوى الإنساني، ومن الفائض فوق تكاليف هذا المستوى يأخذ الفرائض.

وما دمنا قد قررنا بأن ولّى الأمر يلتزم أيضاً بدراسة هذا المستوى ومدى توافره عند كل فرد، فإنه يترتب على ذلك أنه إذا كانت بأقوام منهم مسغبة أو متربة فإن علاج أمرهم يدخل فيما يدل عليه المفهوم الإصطلاحي « المصلحة العامة » التي كان تحقيقها قصداً، وما الأخذ إلا وسيلة.

فكيف يفعل ولّى الأمر بالحالات التي لا ترقى إلى المستوى الحدى الذى تتعين عنده بداية الفائض، أو بداية العفو؟

هذه هي القضية الأخرى التي لا تقلّ عن كل ما تقدّم، من حيث الأهمية.

وهي بدورها، بعض ما تحدثنا به الآية الكريمة الموجزة: « خذ العفو » حين نحسن الاستماع إلى ما في كتاب الله من حكم بين ثابت جامع مانع، لا يقبل التطوير ولا التطور، بل هو وحده الكفيل بتحقيق الخير في الأولى وفي الآخرة.

قد يبدو أن ما تقدم من قول متصل بقوله تعالى: « خذ العفو »

لا يمتّ إلى موضوع الربا بأية صلة . ومن ثم فإن القدر الذى ذكرناه يحمل على أنه تقديم مطوّل !! .

وأبادر إلى إزالة هذا اللبس ، فأقول :

إن الحكم الذى يقضى بأخذ العفو دون غيره من أثمان الضروريات ، وما يتفرع عنه من كفالة ولى الأمر للمستوى الوسيط ، إنما هو مثل للأحكام القرآنية التى تستهدف صيانة المجتمع من الهزات الاجتماعية ومن الآراء الهدامة ، كما أنه يستهدف كفالة التعاون فيما بين الناس .

أى أنه حكم يحقق الاستقرار ، ومن ثم التقدم والبناء فى ظل وارف من الأمن والطمأنينة ، إذا حسن تطبيق الحكم . . . وذلك على حين أن التنظيم الربوى يزيد من الفروق بين الأرزاق ، ويزيد الضعيف ضعفاً ، فيكون عبئاً ثقيلاً على المجتمع ، ومصدراً للتفكير الهدام ، أو للجريمة ، كما يزيد الغنى غنى ، فيغيره المال على الفساد والطفان .

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة العلق : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » . فإذا جلونا صورة واحدة من صور الأحكام التى تستهدف البناء الاقتصادى فى ظل الأمن ، فإن النقيض من ذلك يكون جلياً واضحاً بدوره .

والشاعر يقول : وبضدها تتميز الأشياء .

عند هذا الحد إذن ، سأترك الكلام عن مفهوم قوله تعالى : « خذ

العفو» مع التنبيه - بكل احترام - إلى أنني لم أزد على النزر اليسير ، وإلى أن هذه الآية الكريمة قد وسعت من علوم المال شيئاً كثيراً ، مع فارق هام ، أكرر الإشارة إليه ، وهو أن النص القرآني واضح وثابت ومرن ، ومن ثم فهو فوق مقتضيات التطوير من لزوم الجمود أو العجز أو النقص أو التخلف ، وهذه شوائب مألوفة في صناعات البشر ، سواء أكانت هذه الصناعات عروضاً ملموسة يجوز عليها التعديل والتحسين ، أم كانت من القضايا الفكرية التي تدركها الأفهام ، ومن ثم يجوز عليها النقد والتصحيح في سبيل الترقى إلى مستويات الفكر الرفيع .

ماهية النظام الاقتصادي :

النظام الاقتصادي هو الهيكل العام الذي تجتمع فيه مقومات الحياة المادية للإنسان ، ومن ثم يقال بأن الاقتصاد هو « العلم الذي يدرس سلوك الإنسان في معيشته العادية ، أو في شئون معاشه . وقد أوردنا لفظة المادية عن قصد ، للتنبيه إلى أنه من عصر النهضة ، واتجاه الفكر الغربي الى التحرر من قيود تعاليم الكنيسة في شئون المعاش ، توافرت في الغرب ظاهرات تحررية - على ما يقولون - يهنا منها في مقامنا هذا الفصل التام بين العلم والأخلاق وعلم الاقتصاد .

ليس هذا فحسب ، بل إن علم الاقتصاد قد فصل فصلاً تاماً عن جميع العلوم الفلسفية ومنها الاجتماع .

وكل ذلك نتيجة لثورة الفكر الغربى المتحرر من تضيق الخناق على النشاط الذى يحكم العقل بإجازته - بل يحكم بضرورته - كالتيجارة مثلاً ، إذ كانت محرمة تحريماً باتاً ولم يجزوا أحد من علماء اللاهوت على إباحتها حتى أن تعاليم « الأب توما الأكوينى » الذى عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد (من سنة ١٢٢٥ إلى سنة ١٢٧٤) كانت تجمع بين الجراءة وبين التردد ، ولم يسلم من النقد ، على نحو ما سنرى بعد قليل .

أما علم الاقتصاد فى يومنا هذا - بعد تطوره فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة - فقد وصل إلى القول بأنه لا معنى إلا بدراسة الظاهرات الوثيقة الصلة بشئون الثروة على النحو الذى تتأق عليه ، من غير تدخل من الباحث . بمعنى أن هذا العلم ينحصر فى القول بما هو كائن وبما سيكون من نتيجة منطقية إذا توافرت مقدمة معينة ، ولا شأن له بما ينبغى أن يكون .

فتقول مثلاً : إذا زادت كمية النقود (وبقيت الظاهرات الأخرى على حالها) فإن الأثمان تميل إلى الارتفاع .

ومعنى ذلك أنه إذا توافرت كميات جديدة من النقود ولم يحدث أن ازدادت سرعة تداولها ، كما لم يحدث أن توافر قدر إضافى من السلع والطلبات ، فإن مستوى الأسعار يميل إلى الارتفاع ، أو يرتفع حتى يبلغ المستوى الذى يتناسب مع زيادة النقود ، أما إذا زادت كمية النقود وزادت سرعتها فى التداول أيضاً ، فإن ارتفاع الأثمان يكون أسرع وأشد ، بفرض بقاء الظاهرات الأخرى على حالها .

قلنا بأن علم الاقتصاد لا يبحث فيما ينبغي أن تكون عليه الحال ،
وهذه قاعدة مطردة مهما بلغت صلة المشكلة التي يبحثها
الاقتصادى ، بالأمور الإنسانية كمشكلات العمال مثلاً ، أو عقد
القرض .

هذا هو علم الاقتصاد البحث أو النظرية الاقتصادية ، وهى فى
تطور مستمر ، وقد خضعت فى هذا القرن العشرين الى التحليل
الرياضى ، وآتت من النظريات ما هو جدير بالدرس والتمكن ،
إلا أن بقاء هذا الفرع الخاص من فروع المعرفة فى برجه العاجى لم
يمنع من قيام الثورة فى نفوس بعض المشتغلين به من المزج بين
فلسفة الاجتماع وبين الاقتصاد البحث ومن ثم نشأت فروع
خاصة ، يقال لواحد منها الاقتصاد الاجتماعى .

وأود التنبيه إلى أن عزل الظاهرات الاقتصادية عزلاً تاماً عن
فلسفة الاجتماع ، وإخضاعها للرياضة (وهى مجموعة من القوانين
الثابتة) تنطوى على خطر كبير يتمثل فى جمود العاطفة وإهدار
الأمور الإنسانية . وقد ترتب على الأخذ بهذا النظر ، أن نشأت
فروع أخرى من المعرفة ، ما كانت الحضارة الفكرية لتقرها لولا
هذه النظرية المادية الخالصة فى دراسة الثروة . ومن ذلك تأسيسها
على خيال سقيم يسمح بإقامة علم مستحدث فى دوائر الأعمال يقال
له « الأخلاق العملية » .

هذه هى بعض النتائج التى ترتبت على فصل دراسة الثروة
أو الأموال - وهى التسمية الثابتة التى أقرها فقهاء الإسلام ، وهى

الأصلح - عن دراسة الفلسفة ، أو قل بعبارة صريحة : فصل الاقتصاد عن الدين .

وقبل أن نسرف في الإعجاب بتطوير النظرية الاقتصادية وما وصلت إليه من تحقيق المادية الصرفة ، يجمل بنا أن ننظر إلى الأسباب التي أدت إلى العزل الذي أشرنا إليه ، أعنى عزل الاقتصاد عن الدين ، وقد كان تحريم الربا في تعاليم الكنيسة من أهم هذه الأسباب ، وبيان ذلك :

مشكلة الربا والثمن العادل من القرون الوسطى المبكرة :

موضوع « الربا والثمن العادل » هو من الموضوعات البارزة ، التي ستظل دائماً من معايير التمييز بين نظم الحياة في القرون الوسطى ، وبين أنظمة العصر الذي نعيش فيه .

فلننظر إذن ، إلى ما كانت عليه الحال في ذلك الوقت المبكر نسبياً في البلاد التي تطورت ، ووصلت بحضارتها المادية إلى حد جعل غيرها ينظر إليها على أنها صاحبة القيادة في كل من مجالات النشاط الاقتصادي ، وكذا الفكرى ، فنجد مثلاً : أنه إلى القرن الثالث عشر تقريباً لم تكن إنجلترا قد عرفت بعد ما هى الرأسمالية . بمعنى أنها لم تمارسها ، لأن الثروة المجمعة - عندئذ - لم تكن من الأهمية بحيث تثير هذا المفهوم الاصطلاحي ، بصورة تلفت نظر المجتمع ... بما في ذلك الجباهير ، والممولين ، والمصلحين أيضاً .

إلا أنه من جهات أخرى من أوروبا - ومنها فلورنسا والبندقية

ولوبيك - وجدت عناصر من تجار ذلك الزمن ، الذين كانوا دائماً على استعداد للمخاطرة بأموالهم الخاصة وبحياة الآخرين ، في طلب الثروة ، ومن ثم لم تكن تقف في سبيلهم أية عقبة مادية أو معنوية بل انحصر همهم في جمع المال ، وفي بعض المدن الإنجليزية - على أية حال - ومنها لندن وبريستول وبلاد أخرى أقل أهمية ، ظهرت صور متواضعة ، وفي نطاق ضيق للرأسمالية .

وقد حفظ التاريخ نماذج لهذه الصورة المبكرة من صور الرأسمالية الباغية ، في المجتمع الإنجليزي لرجال من الوافدين على الجزر البريطانية ، وبخاصة من الجهات التي كانت تتجر مع بريطانيا عندئذ ، مثل لومبارديا وفلمنج وهانزا .

ومع ظهور البوادر المبكرة للرأسمالية ، زادت حدة مشكلة الربا ، وهي المشكلة التي تأخذ صوراً عديدة ، منها الإقراض بفائدة محددة سلفاً ، ومنها صور أخرى أشد إيذاء للمجتمع ، على نحو ما سيتضح في الموضع المناسب .

وفي هذا المجال - كما في مجالات كثيرة أخرى - تدخلت سلطة الكنيسة بقصد الإرشاد ، ولكن في رأى الأستاذ كولتن - في كتابه : « تاريخ العصور الوسطى » كان تدخل الكنيسة أقل من حيث الأثر والشمول ، من الصورة المبالغ فيها التي عمد بعض المؤرخين الى مطالعة الناس بها .

كان الآباء من رعاة الكنيسة ، يتجاهلون التجارة على وجه العموم ، أو يعلنون سخطهم عليها وعلى من يمارسها ، بمقولة : أنها

خطيئة ، وكان موقفهم هذا من التجارة شبيهاً بموقفهم من إدخال
الفنون إلى مباني الكنائس ، لزخرفتها بالصور والتماثيل .

ولكن يلاحظ أنه في هذه الآونة ، وفي الأجيال التالية لها ، كانت
الكنيسة ، أو كان رجال الأكليروس يملكون بصفتهم هذه ، أكبر
مساحات من الأرض ، وكانوا يحتلون قبة الإقطاع .
ومع ذلك كانوا يقفون من التجارة موقفاً لا يكتفون فيه بمجرد
الترك والإهمال أو الإنكار .

وإنما تطور موقفهم هذا إلى نوع من العداوة السافرة
والاضطهاد .

هذا عن الصراع بين الرأسمالية المبكرة ممثلة في التجارة وفي عقد
القروض بالفوائد الربوية من ناحية ، وبين سلطة الكنيسة التي
حرمت النشاط الاقتصادي في صورة سالفة الذكر ، وأباحت
الإقطاع وتربعت على عرشه المادى الخالص .

أما الجماهير ... أما الشعوب ، فإنها كانت بطبيعة الحال ، تحس
أو تتجه بميولها وبرغباتها لمجابهة المصالح الخاصة الظالمة التي طالعتها
من جانب الإقطاع ، ومن ثم كانت تميل مع التجار والمرايين إلى
المجابهة والمعارضة لما يصدر عن هذه السلطات الدينية من تعاليم
ومن آراء .

وكان المجتمع الذى يضم هذه الطبقات يروح تحت السيطرة المادية
والمالية لملاك الأراضي وعناصر الإقطاع من ناحية ، ويرسف من

ناحية أخرى في أغلال وقيود فكرية تتمثل في سلطة روحية غامضة تسترهب العامة ، ومن هذه السلطة الروحية موقف الكنيسة من التجارة ومن القروض الربوية على ما يَبْينا .

ولقد تبلورت العقيدة التي تفشت في الجماهير عندئذ بمعظم الدويلات والممالك الأوروبية في مقابلة غامضة بين فكرة التخليص أو الخلاص ، أى خلاص النفس من الخطيئة التي تنغمس فيها ، إن هى عارضت آراء « الأكليروس » ، ونشطت إلى الحرف والتجارة ، هذا من ناحية وبين المجازفة بالتردى في اللعنة التي تحمل بالناس إذا هم جروا على مجابهة تعاليم الآباء من رجال الدين ، اشتغلوا بالحرف والصناعات وبالتجارة .

ولم تكن الخطيئة مجرد سيئة لا يجزى مقترفها إلا بقدر ما اقترب من ذنب ، ولكنها كانت - كما قيل آنئذ للناس - خطيئة أبدية ، ولعنة مقيمة في الأرض وفي السماء ، في الحياة الأولى وفي الحياة الآخرة ، ويقابل هذه الصورة الموحشة التي ترتعد لها الفرائص ، سلام دائم ، وخلاص للنفس البشرية يدوم أبد الآبدين .

وبين هاتين الصورتين ، إهتزت نفوس الجماهير بفعل العقيدة التي تولى بثها والدفاع عنها رجال الدين ، وهم عندئذ من كبار ملاك الإقطاعيات التي كانت تدرّ عليهم إيرادات وفيرة ، تكفل لهم النعيم ، وهو نعيم حلال كما كانوا يقولون .

وإنه لمن المفيد أن ننظر إلى بعض نصوص التشريع السابقة والمعاصرة ذات الصلة بهذا المجال ، ومن ذلك أن القانون

الإمبراطورى لروما : **Roman Imperial Law** كان ينظر إلى المجادلة عن الثمن (أو الفصال) على أنها مسألة جرأة في المنافسة أو مسألة أسلوب مجرد ، في ممارسة المنافسة الطليقة أو الحرة ، فكان يقول :

Sell as dear and buy as cheaply as you can; all is fair, short of actual cheating.

(إذا اشتريت فأبخس الثمن ما استطعت ، وإذا بعت فضاعف الثمن ما وجدت سبيلاً إلى المضاعفة ، ولا حرج ، فهذا وذاك عدل في المعاملة بشرط ألا تدخل الغش . .)

أما قانون الكنيسة وقد تأثرت به قوانين الحكومات التي عاشت في ذلك الزمن ، أعنى (القرون الوسطى) فقد جنح إلى شيء من الإنسانية حين قرر ما يلي : (كل فرد يرعى مصلحته الخاصة) ولكنه - أعنى القانون الكنسى - لم يقف عند هذا الحد بل أضاف ضابطين للمعاملات ، قائلاً :

(كل يرعى جاره ، وكل فرد مطالب بأن يعامل الناس (أو الآخرين) بما يحب أن يعاملوه به) . ولكن هذه التعاليم التي جاءت بها قوانين الكنيسة لم تستمر من حيث التطبيق الشامل طويلاً .

وينسب « السير وليام أشلى » في بعض مؤلفاته أقوالاً لكل من « توربليان وجيروم والقدیس أوغسطين » .

فيقول الأخير ما يلي : إن ممارسة الأعمال **business** هي في حقيقتها خطيئة ، لأنها تصرف النفس عن الحق وهو الله ، وفي

الاتجاه إلى الحق وحده الراحة الحقيقية والسلام rest .

ويروى كولتون (المؤرخ العالم المشار إليه آنفاً) فقرات أخرى لم يذكرها السير وليام أشلي ، وقد تضمنتها مؤلفات أخرى ومنها ما هو منسوب إلى جون كيستوم ، ومفادها : من اشترى شيئاً لا ليبيعه على هيئته (التي اشتراه عليها) وإنما ليكون مادة لإعداد شيء آخر ، فإنه لا يعتبر تاجراً ، ولكن الشخص الذي يشتري شيئاً ليعود فيبيعه على حالته وبغير تعديل يجريه عليه ، فإن هذا الشخص الأخير يدخل في زمرة المشترين والبائعين المبعدين عن حظيرة المعبد وقديسيته ، (هكذا في الأصل) . وواضح أن المقصود . هو الإبعاد عن جانب الله ، أو الطرد من رحمة الله .

ومن ثم كان شراء السلعة لإعادة بيعها (كما هي) خطيئة لا تقل عن الربا من حيث جسامة الجرم ، سوى درجة واحدة .

وهذه الأقوال ، لا تخرج عن كونها امتداداً منطقياً لتعاليم بولس الرسول ، أو القديس بولس الذي قرر بأنه : من حيث أن المسيحي لا ينبغي له أن يتنازع أخاه المسيحي نزاعاً قضائياً ، فإنه يتعين ألا تكون بين المسيحيين تجارة ناشطة .

تراجع تعاليم الكنيسة :

ولكن تعاليم الكنيسة تراجعت في مواجهة التنظيم الوضعي للنشاط الاقتصادي ، ومن ثم نبئت فكرة الثمن العادل : The just price التي تبيح البيع والشراء على شريطة ألا يكون هنالك غلو في

الربح ، وكل غلوّ يعتبر كسباً محرماً ، وكل تجارة تجبىء لصاحبها بما يزيد على الكسب المشروع (في نظر المجتمع) تعتبر بدورها تجارة محرمة كتحریم الربا . وحد الكسب المشروع ، هو ما يحفظ على التاجر مركزه العادى فى الوسط الذى يعيش فيه .

إلى هذه الدرجة إذن ، تطورت التعاليم التى كانت تحكم التجارة فى أواخر القرون الوسطى المبكرة ، أى حول القرن الخامس عشر .

ويرى الأستاذ (كولتون) : أنه عند هذا الحد ينبغي القول بأنه لم يكن من المستساغ أن تنسى هذه التعاليم وأن تطرح تماماً ، وبالفصل بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد السياسى ، لأن الفصل بين العلمين فصلاً تاماً - فى رأيه - خطأ ، كالفصل بين أى علمين آخرين . ونقول بأن هذا الرأى صواب ، كما نقول أيضاً بأنه عندما تراجعت الكنيسة عن التحريم القطعى للتجارة ، الى القول بالثمن العادل . وعندما قالت بتحريم الكسب الفاحش وأنزلته منزلة الربا ، قد وصلت بالتأمل الى رأى صائب ، لأن الربا فى حقيقته هو كل اعتصار للضعيف ، سواء أكان هذا الجرم يتخذ صورة القرض النقدى ، أم صورة من صور الحيل التى تضى على العقد صورة البيع ، وهو فى حقيقته ربا ، أم كان الاعتصار بأساليب أخرى كاحتكار الأقوات .

الأب توماس الأكويني وفلسفته عن الثمن العادل :

على أن التطور الذى أشرنا إليه ، وقلنا بأنه قضى على التحريم القطعى للتجارة (وقد قالت به الكنيسة فى أوائل العصر الوسيط ، وعلى الخصوص فى كل من القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، وأفسح المجال لفكرة الثمن العادل) ، أنهى حالة الجمود والركود ، ومهد للتطوير من جديد ، فجاء « الأب توماس الاكويني » - بدوره - بفلسفته عن الثمن العادل فى القرن الثالث عشر .

وفى رأيه أن التجارة فى حد ذاتها ليست من الخطيئة فى شيء ، لكنها تحمل بذور الشر بما تنطوى عليه من فرص الإغراء بالكسب الفاحش ، ومن ثم فرص الإغراء بالوقوع فى الخطيئة .

وكان « الأب توماس الاكويني » على شيء من العلم ، ومن ثم فقد خشى أن يصطدم بالتعاليم التى وضعتها الكنيسة من قبل ، ولذلك حين تكلم عن التجارة دار دورة كبيرة وحاول أن يفرق بين المبادلة التى تستهدف مصلحة عامة ، وتلك التى تنصرف انصرافاً تاماً إلى تحقيق الكسب ، وانتهى الى القول بأنها (أى التجارة) مشوبة فى أساسها بقدر من الوزر لأنها تفرى بالتزايد فى الكسب غير المشروع ، لأنها لا تستهدف ، على وجه العموم ، خدمة عامة أو فعلاً خيراً . . . ومع ذلك هى لا تحمل فى ثنايا تكوينها الطبيعى - إذا جردناها من طمع الإنسان - بذور الاثم والخطيئة ، ولا عوامل مناهضة الفضيلة .

وتأسيساً على ما تقدم - يقول الأب توماس الاكوينى - : بأنه ليس هنالك ما يمنع من القول بأن المتاجرة مأذون بها قانوناً ؛ ان كانت تستهدف تحقيق غاية ضرورية ، أو هدفاً نبيلاً ...

وهنا بالذات نود التنبيه الى أن فلسفة الأب توماس وما يدور في فلكها ، هى التى حملت الكنيسة فى القرون المتأخرة (أعنى الثامن عشر والتاسع عشر) على أن تسكت - على الأقل تسكت - حين وجهت أوروبا جهودها نحو الشرق البعيد ، والشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، فى محاولات لتحقيق هدف ضرورى أو هدف شريف (عند الصليبيين) وهو انتقااص الأمم الإسلامية من أطرافها بكل وسيلة ، ومن هذه الوسائل ، بل ومن أهمها الإقراض بالربا الفاحش المضاعف ، وتحقيق الأرباح الخيالية ، أو قل الاغتصاب والنهب المنظم لخيرات البلاد التى رزئت بزول الفرنجة فيها .

وحين أهلّ القرن التاسع عشر ، اتخذت هذه الظاهرة سمّتها إلى القمة ، فكانت أساليب المتاجرة مع الصين لنهب خيراتها تعتمد - فيما تعتمد عليه - على تخدير الشعب بتشجيع تعاطى الأفيون . وكانت القروض تمنح للولاة وللسلطين بالفوائد الفاحشة ، وكانت عقود الامتياز للمتاجرة ولاستغلال الخيرات تصمم على أساس السلب المنظم ، بدعوى حق الامتياز ، ولم تحرك الكنيسة ساكناً ، لأن الأهداف - فى نظر الفلسفة الاكوينية وتطويرها - هى أهداف مشروعة أو شريفة ، أو هى على الأقل ضرورية للحد من خطر الاسلام الذى بقى على وجه الأرض نوراً للبشرية ، وقذى فى عيون

المبطلين .

وفي جو هذا التنازع بين الفضيلة النظرية المتخاذلة المضطربة ، وبين الصعوبات العملية عند التطبيق في النشاط الاقتصادي ، مع الوقوف عند حد الثمن العادل ، بقيت مشكلة الربا كواحدة من مشكلات الاقتصاد السياسي المعروف في القرون الوسطى ، ولكنها تميزت باعتبارها شائكة قاسية ومحركة ، لا يكاد الباحث يلمسها حتى تتنازع تيارات الفضيلة النظرية من ناحية ، والاعتبارات العملية من ناحية أخرى .

ومما ساعد على بقائها بغير حل ، إدعاء أوروبا في أبان عصر النهضة أنها تتمسك بدين السيد المسيح عليه السلام . وأنها صليبية على عهداها السابق ، وأنها تؤمن بالإنجيل الذي يقول بالنص الصريح ، بتحريم الربا والفائدة في جميع صورها ، وتعرف هذه المعاملات التي يحرمها بأنها « أخذ أى قدر زائد على أصل القرض . » .

ولفظه القرض في لغة التمويل ، أو في سوق رأس المال تنصرف إلى الدين والمشاركة والمساهمة . على خلاف لغة القانون التي تفصل بين المفاهيم فصلاً يقتضيه وضع القواعد الضابطة لكل نوع من أنواع المعاملات والعقود .

ولا تزال لفظه القرض إلى وقتنا هذا - في دراسة التمويل - تفيد الامداد بالمدخرات . بصرف النظر عن الشكل القانوني الذي تصب فيه عملية التمويل . ويظل هذا النظر صحيحاً في دراسة التمويل ،

عندما يكون التمويل في داخل إقليم معين ، وعندما يكون في المجال الدولي على السواء ، وهكذا يتضح أن رجال الكنيسة لم يتجنوا بقولهم بأن القرض محرم ، ولا بقولهم بأن المتاجرة والمرا بحة والمشاركة والمضاربة كلها حرام ، لأن النص الذى يتلونه يحض المسيحى ، أن يعيش فى سلام ومن أجل السلام وراحة النفس . . . ومن شأن النشاط الاقتصادى وحب المال ، أن يصرف النفس عن الله ، والله وحده الحق .

كان طبيعياً إذن أن تبقى مشكلة الربا شائكة الى القرون القربية وأبان عصر النهضة . واستمرت الحال كذلك حتى ثارت المشكلات فى مناسبات دينية . كالا عت راف . إذ كان القس يسأل المعترف ، والمعترف يجيب ، أو يلجمه المخرج ، ولذلك رأت روما أن تصدر تعليماتها المشددة إلى الآباء الذين يخدمون كرسى الاعتراف ، بألا يمسوا الناحية المالية فى أسئلتهم . بمعنى أن يفضوا الطرف تماماً عن ماهية الاستثمارات التى مارسها المعترف بخطايا ه . وصدر بهذه التعليمات منشور بابوى فى سنة ١٨٣٠ .

والمحصلة الأخيرة لهذه الأوضاع ، تلخص فى أن تعاليم الأخوة والتراحم التى انتشرت فى الغرب الأوروبى ، بانتشار تعاليم السيد المسيح ، ومن تولى الدعوة إليها ، إلى أن كانت القرون الوسطى حين بدأ نشاط التجارة يدب ديبه الأول - قبل الاهتداء إلى الصناعة بمعناها المعروف خلال مائة وخمسين عاماً مضت . . . أقول بأن هذه التعاليم التى تفيض سماحة ، قد تحولت عندئذ مع تقدم

النشاط التجارى والمالى إلى كلام عذب ، لا شأن له بمجالات التطبيق .

وعلى الرغم من التصايح والاحتجاج بين آن وأن ، فإن هذه الأوضاع سادت ، وبقيت المعاملات ، والأجور ، والأثمان ، وأساليب تمييز المدخرات لا تجد ضابطاً فعالاً إلا من العادات والتنظيمات الخاصة التى تعمل على حماية جماعة معينة ، أو أصحاب مهنة أو حرفة ، ولم يصل التطور الاجتماعى عندئذ إلى هدفه الذى يتمثل فى قيام مجتمع متماسك ، وذلك بسبب ضعف المواصلات ، ومن ثم لم يكن هنالك رأى عام بأى قدر له وزنه ، ولم يكن هنالك أيضاً ما يعرف بالضمير الاجتماعى ..

وفى ظروف كهذه لم تكن هنالك فكرة واضحة عن العدالة الاجتماعية التى تمثلها الغرب فيما بعد فى مذاهب اقتصادية دائمة التطور .

استقلال الرأسمالية من قبضة الكنيسة فى الغرب :

وبارتحاء قبضة رجال الدين عن شئون المال ، بل عن الشئون الدنيوية ، تقدمت الرأسمالية بخطوات ثابتة وأخذت فى تهذيب الوسائل العتيقة والتخفيف من قسوتها ، ومن ذلك تخفيف الربا ، إلى الفائدة ، على أنه يتعين التنبيه إلى أن فصل الدين والأخلاق عن الاقتصاد قد أفسح المجال أمام المغامرين لكى يشطوا فى مجالات التنمية بغير ضابط من الخلق أو الضمير ، ولم يتورع أحدهم

عن ظلم جاره أو شريكه أو منافسه ، وإن كان هذا الظلم يؤدي إلى تحطيم الخصم .

إلا أن الوقائع المحلية كانت فردية وغير خطيرة ، وإنما تمثلت وحشية الرأسمالية في زحفها على كل من آسيا وأفريقيا من جهة ، وعلى أمريكا اللاتينية من ناحية أخرى . بحيث نجد في تاريخ استغلال موارد هذه القارات صفحات من التاريخ لا تدانيها وحشية المجوس والتتار .

ومن أقدر الأقلام التي تعرضت لوصف مصادر المدنية المادية الحديثة ، قلم الاقتصادي الأمريكي ثورستين فبلن ، الذي لم يقف عند حد دراسة أصل الحضارة المادية الرأسمالية الحاضرة ، بل عكف على تجريد الحضارة المعاصرة من زيفها وعرضها للقارئ على حقيقتها ، فإذا بها ربا فاحش وتجارة بالعرض وبجياة الآخرين ، وقد كتب إلى آخر حياته في سنة ١٩٢٩ ، وكان طبيعياً أن يعيش مضطهداً ، وأن يموت مغموراً في وظيفة أستاذ للاقتصاد بجامعة صغيرة ، بعد أن طارده أصحاب الصناعات وهم جبابرة المال ، وهم أيضاً الممولون للجامعات الكبيرة .

إلا أنه وجد أيضاً من يدافع عن الرأسمالية المؤسسة على المعاملات الربوية ، ومنهم « آرثر لوك » في كتابه عن التطور الرأسمالي في الولايات المتحدة من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٥٥ .

ومن الاقتصاديين الأمريكيين أيضاً ، من يرى أن الحياة الاقتصادية الحاضرة ، لا تقوم إلا على الربا ، وقد وصل بتحليل

ظريف إلى أن إيجار الأرض والعقار فائدة ، والأجور والمرتبات فائدة ، وجزء رأس المال الخالص فائدة ، والريح المنظم فائدة أيضاً . وعنده أن الظاهرة الربوية المخففة هي علة النشاط وهي المعيار الأوحده للعدل في توزيع الثمرات ، أى ناتج كل نشاط يباشره الإنسان بتسخيره لقوى الطبيعة وتوظيف رأس المال والجهد والكفاية ، ومن هؤلاء « بول صامولسون » الأستاذ ببعض الجامعات الأمريكية (الاقتصاد والتحليل سنة ١٩٥٣) .

خفت صوت الدين اذن في الغرب ، من أربعة قرون على الأقل ، في مشكلة الربا والفائدة والربح الفاحش ، وكلما اقتربنا من القرن التاسع عشر نجد أن الرأسمالية قد استقلت بوضع أقيستها ومعاييرها للمعاملات ، وبخاصة بعد الثورة العلنية على السلطة البابوية في شئون الدنيا ، وقد رفع رايها نابليون في حفل تتويجه على ما هو معروف ، عندما تناول التاج بيده وأقره على رأسه ، على خلاف التقليد الذى كان باقياً لإنفاذ الشكل بعد أن ضاع الجوهر ، والذى كان يقضى بأن يكون إسناد السلطة الزمنية إلى الإمبراطور أو الملك ، بيد الكنيسة ممثلة في رجل الدين .

ولذلك يتعين القول ، بأن البحث في الربا والفائدة ، يعتبر عند علماء الغرب ، من القرن التاسع عشر إلى الآن ترفاً تاريخياً أو بقية من التعصب الأعمى .

* * *

ووجه المخطورة في هذه الجزئية أننا هنا في المشرق ، قد تأثرنا إلى

حد ما ، ونكاد نياس من إخضاع النظم الاقتصادية لأحكام الدين الحنيف ، ولهذا أرى لزماً أن أختم هذا الجزء من المحاضرة بالتنبيه إلى انعدام الشبه بين موقف السلطة الروحية من مشكلة الربا في الغرب ، ومن ثم فجور الرأسمالية وتطورها إلى استعمار وحروب اقتصادية وبيلة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى موقف الأحكام القرآنية من المشكلة الاقتصادية على وجه العموم ، وجزئية الربا على التخصيص وبيان ذلك :

موقف الكنيسة :

كان موقف الكنيسة ميثوساً منه ، ما في ذلك شك ، ولهذا تراجعت ثم خسرت المعركة نهائياً بعد أن طال دفاعها ، وأما الأسباب فتتلخص فيما يلي :

(١) نص الإنجيل :

رأينا أن النص الصريح الوارد في الإنجيل يحرم كل زيادة على القرض ، وعلمنا بأن القرض هو التحويل ، ومن ثم فهمت الكنيسة فهماً صحيحاً أن المتاجرة مشوبة على الأقل ، إن لم تكن محرمة قطعاً في كل صورها ، بما في ذلك القرض الربوى بحكم النص .

ولم يكن في وسعها أن تناقش صحة الرواية التي انتهت إليها الأناجيل الأربعة ، ولم يكن في وسعها أن تقول : بأن كل إنجيل إنما يمثل ما فهمه كاتبه من تعاليم السيد المسيح .

ولم يكن في وسعها أن تقول : بأن كلام الله لا يمكن أن يجيء على

العديد من الصور، ولم يكن في وسعها - وهذا هو الأهم - أن تقول: بأن المسيحية دين سماوى ولكنه لفترة من الزمن، وأنه يدعو الى المحبة والسلام، ولا يتعرض لتنظيم شئون الناس في معاشهم، ومن ثم فإن التعاليم التى تضعها الكنيسة هى قوانين وضعية يجوز عليها التطور والتعديل، وأخيراً الإلغاء.. وقد كان.

(٢) موقف الكنيسة من التجارة :

حرمت الكنيسة على شعوبها أن تتجر وتوعدتهم باللعنة الأبدية إذا هم فعلوا. إلا أن تاريخ القانون، وتطوراته فى القرون الوسطى المتأخرة، الى الثامن عشر - وقد جمعت لجان بتكليف من نابليون، عندما أراد أن يضع قانونه - قد حفلت بأصناف من العقود السرية، ومنها عقد التوصية البحرى، وفى كل عقد من هذه العقود طرف مستتر هو نبيل أو واحد من رجال الدين، وطرف ظاهر، هو البحار الذى ينقل السلع والمحصولات فيجلب الربح ويقتسم مع الشريك المستخفى، وكانت أطراف العقود إما من الأفراد، أو من الجماعات، وكان الشريك المستتر دائماً أو الشركاء ممن تقدم ذكرهم.

وكانت الجهاير تعلم ذلك وتتناقله، ولكنها مع ذلك كانت فى حيرة من أمر العقيدة الغامضة من ناحية، ونشاط رجل الدين فى مجالات يجرمها على الجهاير من ناحية أخرى، ولكن فكرة خلاص النفس خلاصاً أبدياً وخشية الطرد من رحمة الله، خدرت الشعوب الأوروبية طويلاً إلى أن كان عصر الإصلاح.

وبالتالى، حين فقدت الكنيسة سلطتها الزمنية، إندفعت الشعوب

الأوروبية إلى النشاط الاقتصادى بطاقة مكبوتة ، فانطلقت لا تلوى على شىء ، وكان من الطبيعى ألا يستمع الفرد منهم إلى فكرة تحريم المعاملات الربوية ، بل إن علماءهم يتحدثون عنها الآن بوصفها من آثار جبروت السلطة الروحية التى كانت تتجر وتحرم التجارة فى آن واحد .

أما عقد التوصية البحرى ، وقد كان عقداً سرياً كما قدمنا ، فقد هذبه قانون نابليون وطوره الى عقد شركة التوصية البسيطة ، وفيها شريك مستتر الى حد ما . وفى هذا تفصيل واف فى تاريخ عقد الشركة .

(٣) سلوك بعض رجال الدين :

يقول كيتشن : فى كتابه عن الطلاق **Divorce by Kitchen** بأن حياة النعيم التى كان يعيشها المترفون من رجال الإقطاع ، وكذا العصاة من المشتغلين بالتجارة فى القرون الوسطى ، قد كانت مذهلة .

ويقول فى معرض الكلام عن تعدد الزوجات : بأن الترف الذى أغدقته إيرادات الإقطاع على السلطة الروحية فى القرون الوسطى ، قد أدّى إلى إنغماس البعض من رجال هذه السلطة فى ألوان من المتع الحسية تدق عن الوصف ، ويقول أيضاً : بأن الغزوات والحروب وإعادة تخطيط المدن ، قد أدت جميعاً إلى تهدم بعض الأديرة ، والكشف عن آثار وعن وثائق ، كانت مادتها محل الحدس

والتكهن في القرون الوسطى ، وكانت تساهم في خلق حالات القلق والارتياب والغموض التي كانت تتألف منها عقيدة ذاهلة تحمل على التسليم في ضيق وارتياب ..

ويقول أيضاً : بأن الكشوف المذكورة - وقد نشرت في وثائق استند اليها في مؤلفه - قد بينت أن بعضاً من الرهبان الذين يحرمون على أنفسهم الزواج العلني كان يتخذ الواحد منهم ، ثلاثاً من الراهبات ، واحدة للأب ، والثانية للابن ، والثالثة للروح القدس . وكان التأويل الذي تطمئن اليه نفوس الجماعات التي نمت على هذا النحو ، من الذكور ومن الاناث ، أن إمتزاج الروح والبدن في تنظيم ثلاثي للراهب الواحد ، هو امتداد لعقيدة التثليث . وشهادة على التسليم بها .

أما ثمار هذا الاتصال البدني الروحي ، فقد كانت تدفن في أقبية الأديرة ، فلم يكن من المفروض أن يظهر الوليد . وقد وجدت هذه الهياكل الآدمية امكنتها حال الهدم والازالة ... لم تكن هذه الحقائق مطوية تماماً عن الشعوب ولكنها لم تكن معلنة كذلك ، على نحو ما ارتآه المؤرخون في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .

وما وصل منها الى علم الجماهير الساعية في طلب البركة ، أو الى كرسى الاعتراف ، كان كافياً لغض الطرف عن تضيق الخناق على المعترف ، وقد قامت بشأن المعاملات الربوية حال الاعتراف ، مشكلات كثيرة في القرن الثامن عشر وفي أوائل القرن التاسع

عشر، حتى أصدر البابا أمره الذى أشرنا اليه (فى سنة ١٨٣٠) .
ومن شأن سلوك بعض رجال الدين على النحو الذى يقول به
(كيتشن) ، ألا يبقى مجال للقول فى سر، بقدسية تعاليم الكنيسة
التي حرمت التجارة ، ولعنت الربا ، ومن ثم كان موقف الكنيسة من
هذه المشكلة ، مبنوساً منه ، على ما قدمنا .

وإنه لأمر بالغ العجب أن نقول : بأنه قياساً على يأس الكنيسة
من مشكلة المعاملات الربوية ، واطراح رأى الدين عند النظر فى
التنظيم الاقتصادى يحل لنا نحن أن نطرح حكماً ، أو نؤوله لكى
يتفق مع التنظيم الرأسمالى الجامح الذى قاد العالم الى حروب
مدمرة ، هى بعض الآثار الملموسة ، لقوله تعالى فى سور البقرة
« يحق الله الربا ، ويربى الصدقات » .

وفى الجزء الأول من الآية وصف بليغ لاقتصاديات القرون
الأخيرة ، التى تستنزف منها المحروب وأدوات التدمير ما يدلنا على
لون من ألوان المحق ، ويكنى أن نلاحظ أن الاستعداد للحرب يكلف
الشعوب فى البلاد الكبرى ما يزيد على أربعين فى المائة من الدخل
القومى .

وأن هذا المال الذى يهلكه البشر طواعية واختياراً ، أو يحقه
البشر بفعلهم ، يبلغ مائة ألف مليون من الجنيهات ، وأنه إذا وزع
على سكان الأرض لخص كل فرد أربعين جنيهاً فى السنة ، وإذا
كانت الأسرة تتألف من خمسة أشخاص ، فإن نصيبها من القدر
المحموق يكون (٢٠٠) جنيه فى السنة ، فما هو إذن النصيب الحقيقى

من المال المهدر لكل أسرة من الأسر في البلاد التي تتحمل العبء الأكبر من تبعات الاستعداد للحرب ، خوفاً من الحرب ؟ .

وهل صح قوله تعالى : « يحق الله الربا » أم لم يصح بعد ؟ .

إن عصر المعجزات قد ولى مع الرسل ، ونحن البشر نتولى بحق رؤوس الأموال وقد شابها الربا بفعلنا وتنظيمنا الخارج على إرادة الله سبحانه وتعالى ، ولكن لهذا القول موضع لا يجىء في هذا الحديث .

التنظيم الاقتصادي كما جاء في بعض آى الذكر الحكيم :-

يقول الله جلّت قدرته في سورة النحل :-

« والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق ، فإ الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبئعنة الله ييجادون » .

وفي تفسير هذه الآية الكريمة قال المفسرون : بأكثر من وجه واحد ، وهم على اجتهدهم يثابون إن شاء الله تعالى . إلا أن ابن كثير القرشى الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هجرية ، جاء في آخر ما أورده لتفسير هذه الآية ، بما يلي بالنص :-

« وعن الحسن البصرى قال : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه الرسالة الى أبى موسى الأشعرى : (واقنع برزقك من الدنيا ، فإن الرحمن فضّل بعض عباده على بعض في الرزق ، بلاء يبتلى به كلاً ، فيبتلى من بسط له كيف شكره الله ، وأداؤه الحق

الذى افترض عليه فيما رزقه وخوله) - رواه ابن أبي حاتم .

في القول المنسوب لسيدنا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ربط بين الآيات المثبتة أعلاه من سورة النحل ، وبين آيات أخرى من سورة الفجر ، سيجيء نصها بعد قليل .

وهذا القول المنسوب لسيدنا عمر ، يكشف لنا كثير من كلمات الله التى لا تدق على الفهم ، إذا تأملنا فيما إنطوت عليه آيات النحل . وآيات الفجر ، على نحو ما فهم الخليفة الراسخ العلم في التنظيم المالى ، بالاجماع .

إلا أن تقريب هذه المعانى يقتضى منا أولاً أن نضرب بعض الأمثال من المشاهدات الحسية ، فلننظر إذن ، إلى أداة عادية من الأدوات التى نتوسل بها لتخفيف الجهد العضلى الذى يلتزم الانسان بتحملة في شئون معاشه . ولمضاعفة الطاقة التى يبذلها في تحقيق بعض الغايات فلننظر إلى الأداة البدائية التى كانت تستخدم في عصر القصب قبل إدخال التحسين عليها بإدخال الطاقة الكهربائية لتشغيلها . . . وسنجد أن الدورة الواحدة التى تتم بالجهد العضلى ، تنتقل الى تروس صغيرة مثبتة في (الطناير أو الدرافيل الخشبية أو المعدنية في العصارات الكهربائية) لكى تضاعف من دورات هذه (الأسطوانات وهى ذاتها الدرافيل) . وهكذا تدور الاسطوانات التى تؤدي وظيفة الضغط على أعواد القصب ، كما تؤدي السحب أيضاً عدة دورات نتيجة لإدارة العجلة التى يمسكها العامل ، مرة واحدة .

ولنتأمل بعد ذلك في حجم العجلة التى يديرها العامل بيده ووزنها وطول قطرها وذلك بالقياس الى هذه المواصفات فى كل من التروس الصغيرة التى تحرك الأسطوانات ، وكذا الأسطوانات ذاتها .

ومن هذه المشاهدات البسيطة يتضح لنا أن كلاً من السرعة المضاعفة التى تؤديها العصارة بالقياس الى حركة العامل ، وكذا الضغط الشديد الذى يفرى أعواد القصب بالقياس الى الضغط الهين الرفيق الذى يبذله العامل حال تناوله لقبضة العجلة المحركة .

أقول : بأن هذه المضاعفة فى كل من السرعة ووزن الضغط المنصب على أعواد القصب ، هو من النتائج البسيطة لتصميم الأداة ، على النحو الذى نراه فى حياتنا العادية ، ولا يستوقف نظرنا ، لأننا ألفناه .

فإن كنا فى شك من عظم الفرق بين قوة البشرية ، وقوة الأداة المشكلة على هذا النحو الخاص ، فلنجرب تجربة بسيطة ، ولتمسك بأعواد القصب ذاتها التى تفرها الأسطوانات ، ولتطلب من العامل (وليكن ذا بأس شديد) أن يهرس هذه الأعواد بيديه ، أو أن يفرها

ويسحقها بيديه وبقدميه وبكل طاقته العضلية ، وسنجد انه سيفشل بالاضافة الى إتلاف الأعواد ذاتها .

فما هو السر الكامن وراء هذا التنظيم الظاهر البساطة ، الغامض فى فعله عند النظرة الساذجة ، أقول : ان العلوم الرياضية ترشدنا إلى أن هذه ظاهرة ميكانيكية بسيطة ، تؤدى - حتماً - إلى مضاعفة الحركة الميكانيكية ، وكذا الضغط ، بمجرد المغايرة فيما بين الأجزاء الداخلة

في تركيب الأداة.

وللبرهنة على صدق هذا النظر ، أوصحة هذا القانون الرياضى ،
يكفى أن نجتمع بين عجلتين من وزن واحد ، ومن حجم واحد ، وقطر
واحد ولنبدأ بإدارة الأولى لنجد أن الثانية تتابعها بالسرعة ذاتها .

ولنتابع الربط بين عجلات ثلاث أو أربع من أوزان وأحجام
وأقطار واحدة على نحو يجعل أحداها تجر العجلات الباقية ، وعندئذ
سنرى أن السرعة تبطىء وأن الجهد العضلى المطلوب يتضاعف ،
ومن ثم تنعكس الظاهرة إلى الإبطاء والتعجيز ، بدلاً من السرعة
والتفوق .

إذن هذا السرّ في تصميم الأداة ، وقد يبدو غامضاً لأول وهلة ،
لا يعدو أن يكون كامناً في قاعدة واحدة ، وهى المغايرة .

ثم إنظر إلى الدراجة ، ووازن بين أقطار الترس الذى يديره
الراكب بقدميه ، والترس الخلفى المثبت فى العجلة التى تدرج على
الأرض ، وهذه العجلة ذاتها ، تجد المغايرة واضحة فى أطوال هذه
الأقطار ، كما تجد المغايرة أيضاً واضحة فى مادة الصنع ، وفى
الوزن ... الخ .

إذن هى المغايرة دائماً .

وانظر إلى تصميم السيارة التى تتسلق المرتفعات وتجرى رخاء فى
السهل المنبسط ، تجد أن التروس التى ترفعها صاعدة فى ببطء تغاير
تلك التى تطلقها بسرعة فى السهل فى الحجم وقوة الاحتمال وعدد

اللفات في الثانية الواحدة

هذه مشاهدات بسيطة من حياتنا اليومية .

المغايرة سنة من سنن الله ، لا يصلح الكون ولا الخلائق إلا بها .

ولكن ، لرفع البصر إلى السماء ، ولننظر إلى النجوم والكواكب ، بل فلننظر إلى الشمس والقمر ، وهذا الكوكب الذي نعيش فيه ، لنرى الشمس طاقة ذرية متفجرة تبعث الحياة إلى الكون فيما ينبعث عنها من عمليات تفجير مستمرة ونجد أن القمر صخر هامد ، والأرض خصب وماء وحياة ، وكل ذلك مع التفاوت الشديد في الحجم والأوزان .

ولنسائل أهل الذكر عن فعل الجاذبية بين هذه الأجرام ، أهو واحد ، أم فيما بينه تفاوت ؟

ولنسائلهم أيضاً : لو أن هذه الأجرام السماوية قد تساوت في الأوزان وفي طبيعة التكوين وفي قوة الجذب ، أكانت هذه المساواة تؤدي إلى جذب القوى للضعيف لكي يدور في مداره من حوله ، أم كانت تؤدي إلى الإفلات من الجاذبية ، على نحو ما أدرك العقل البشري ، فقذف ببعض الأنقال من أسر جاذبية الأرض ، وخرجت إلى الأفلاك ، لتخضع بدورها إلى مدارات رتيبة دائبة الدوران . . . وسنخرج من هذه المشاهدات البسيطة أيضاً بنتيجة واحدة هي أن السر الكامن وراء هذا التصميم هو المغايرة .

المغايرة دائماً في الأوزان وفي طبيعة التكوين وفي قوة الجذب .

ونحن إلى الآن ، لم نقرأ من كلمات الله المبسوط في بعض ما خلق ،
إلا مقدار ذرة من بحور الرمال .

ولنرجع البصر إلى هذه الخلائق لتتساءل : هل كانت أحوالها
تستقيم لو أن الله سبحانه وتعالى قد أنشأ الخلق على غلط واحد ، في
الوزن والطول والعرض في القوة العاقلة وفي القوة البدنية في
الميل إلى تحمل الشقاء أو الميل إلى البساطة أو التبذل . في التلهف
على إشباع الحاجات أو القدرة على ضبط النفس وإرجاء هذا
الإشباع . . . في المغامرة أو طلب الأمن في التأني أو التعجل . في بعد
النظر أو في سذاجة الفطرة ؟

أقول : فلنتصور أن التسوية التامة الشاملة قد كانت عامة بين
الخلائق على زعم أن هذه الأوضاع القبطية هي مقتضى العدالة .
ثم لتتساءل ؟

في مثل هذا التنظيم العادل (فرضاً) مَنْ مِنْ هذه الخلائق القبطية
يدخر ، ولماذا يدخر هو بالذات . ومن الذي يضبط النفس
فلا يتلهف ، ولماذا يرضى بالحرمان ؟ ومن الذي يبني الطريق ويشيد
الدار ؟ ولماذا لا يفعل ذلك غيره وكل الناس سواء ؟

ولتتساءل أيضاً : مَنْ مِنَ الناس يرضى بأن يوقد النار ، أو يحطب
الحطب ، أو يضرب الحجر الجيرى وهو يتوهج كالنار المحرقة ليسحقه
وهو جذل سعيد يردد الأغاني أو الأناشيد .

ومن الذي يقبع في المقعد الوثير ورأسه تنوء بمشكلات الجماهير

حول الأجور والمعاشات وسائر أرزاق الناس ؟

أو حول الأمن وإقامة العدل بين الناس ؟ من الذى يرضى بأن
يخدم غيره ، والناس سواء ؟

ثم إننا بشر من تراب بل كان خلقنا من صلصال من حمأ مسنون
أى من طين لازب معجون بماء آسن ، ومن ثم كما قال سيدنا على
بن أبى طالب فى وصف هذا البدن : (تقعده شوكة وتنتنه عرقه) .
وكما قال أيضاً (أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قدرة وهو بينها يحمل
العذرة) .

ومن طبيعة التكوين المعروف للانسان من روح وتراب سريع
الفساد أننا نعيش ومن حولنا أطنان لا يحصىها إلا علام الغيوب من
النفائات والأوساخ والأدران ، وما تلفظه المطابخ والمشافى والمصانع
من رواسب ، وما يتخلص منه الأحياء مما فى بطونهم ، وأخيراً هنالك
المصير المحتوم هنالك الموتى فى كل لحظة وهنالك خدمة الموتى ،
وخدمة القبور ...

فربكم من الذى يحمل النفائات ومن الذى يختص نفسه بمداعبة
الزهور ، مادام الناس كلهم سواء ؟ هذا خيال ! .

أما الحق ، فهو أن المغايرة التى صلحت عليها الأداة البدائية
والتي إنتظمت بفضلها الأفلاك وما حوته من أجرام سماوية هى
المغايرة التى لا يصلح شئ فى الوجود إلا بها .

ومن ثم كان ميل الأرض بمحورها وتفاوت الأقدار من الضوء

والحرارة على سطحها ، من الطاقات التي تجنبها من الشمس ، ومن ثم كانت المناطق الاستوائية ، والمعتدلة والمتجمدة وكانت البحار والأنهار وكان الجذب أيضاً . . . ومن ثم كانت التركيبات المنوعة لجملة القشرة الأرضية وكانت الوهاد إلى جوار الجبال وقامت الجبال رواسى فى هذه الأرض خشية أن تميد بكم . . . وبعبارة موجزة : هكذا نشأت البيئات الطبيعية المتفاوتة التى أثرت على ولد آدم فى حقبة طويلة وجعلت منه شعوباً وقبائل ، على تفاوت فى الطاقة والقدرة وكل المقومات.

وهكذا تفاوت الناس فى السعى إلى طلب الرزق ، وفى الادخار والتثمير وبعد النظر وهكذا تفاوت الناس فى الثروة وفى الايراد ، أو فى الغنى والفقر ، إذن تفاوت الأرزاق هو مجرد حالة واقعية تأتى حتماً بفعل المغايرة بين الخلائق ، والمغايرة فيما بين الخلائق - بدورها - سنة ثابتة تستهدف صلاح الكون وتعميره وانتظم العيش فيه ، واستمرار هذا العيش ، على المغايرة وحدها ، على نحو ما نشاهد من استمرار الأجرام السماوية فى دورانها على أساس المغايرة دائماً . . . ومن جملة هذه المشاهدات البسيطة يتضح لنا أن سنة الله فى خلقه ثابتة لا يصح عليها التبديل فهى واحدة دائماً . . .

كما يتضح لنا أن الأسلوب المتبع فى التشكيل والتجميع هو أسلوب واحد ، وهذا أمر تدركه الفطرة السليمة ، ومن ثم تؤمن النفس مطمئنة بأن مبدع هذه الكائنات على هذا النسق الواحد ، لابد أن يكون واحداً فرداً لا شريك له سبحانه وتعالى عما شر كون .

الحياة الدنيا ابتلاء للغنى والفقر سواء :

فلنرجع الآن ، إلى الآية الكريمة من سورة النحل ، لتتلو بعضها :
« والله فضل بعضكم على بعض » هذا خبر . هذه إفادة ، أو مجرد
تقرير ظاهرة حتمية تتأق عن ظاهرة أخرى أشد لزوماً ، وهى
المغايرة .

ليس فى هذا القول إذن تبكىة للفقير ، ولا تقرير ميزة لمن هم
أكثر من غيرهم رزقاً ، وإنما هو خبر له ما بعده ، على ما سنرى .

والدليل على صحة هذا النظر - والله وحده هو عالم الغيب
والشهادة - مستمد من آيات سورة الفجر ، التى جمع سيدنا عمر
بينها وبين آيات سورة النحل ، فى كتابه للأشعرى ، قال تعالى :
« فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمة ، فيقول ربى أكرمنى ،
وأما إذا ما ابتلاه فقد ر عليه رزقه فيقول ربى أهاننى ، كلاً ، » . (١)

ولننظر الآن فى هذه اللفظة الواحدة : (ابتلاه) ثم لنتساءل ،
أليس فى اللغة العربية لفظة تفيد التفضيل - على ظاهره - ولها نفس
الجرس والوزن ؟

أقول نعم : اجتباه .

فلماذا لم يأت القرآن ليقول بشأن الانسان إذا ما أريد له المركز
المميز من حيث النعيم ، ووفرة الرزق بأنه انسان مجتبه ، بدلاً من

(١) الآية ١٦ من سورة الفجر .

قوله : بأنه انسان مبتلى ، كالفقير تماماً ؟

ذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد سوى بين العباد عند ابتلائهم بالفقر والغنى ، كنتيجة حتمية للمغايرة فى المخلوقات .

ومن ثم فإن كلاً منهم مبتلى . وقد يكون ابتلاء الغنى وصاحب السلطة ، أسمى من ابتلاء الفقير والعبد المغمور .

هذا المعنى لا يغيب عن الفهم ، ولا يدق عن النظرة الفاحصة إذا ذكرنا بعض ما وصلت اليه القرائح من المعانى المشابهة إما عن طريق النقل ، أو عن طريق الملاحظة العلمية .

ومن ذلك ما قاله الشاعر الانجليزى « شكسبير » حين شبه هذا العالم كله ، بالمرح الذى يعرض عليه رواياته ، فقال فى بعض ما كتب ما معناه : إن الانسان فى هذه الحياة الدنيا يشبه الممثل الذى يسند اليه دور معين ، فيقوم به إلى آخره ، وحين يسدل الستار وتطفأ الأنوار ، يعود كل ممثل إلى حالته محتفظاً بمكانته التى له فى حياته الخاصة ، وقد يودى رئيس الفريق دور الخادم ويتقنه ، وقد يودى ممثل ناشئ أو قليل الكفاية ، دور شخصية كبيرة كأمر أو ملك أو وزير .

وكل من هؤلاء الممثلين يمتحن فى دوره أو يبتلى به ، ويحكم عليه الجمهور ، ومن لا يحسن دوره ينحى عنه ، وليس فى مكنته أن يتشبث بالمنصب الذى أسند اليه ، بل ليس فى مكنته أن يفلت من المحاسبة أو الجزاء على تقصيره إن كان أدأؤه لدوره سيئاً .

وعندئذ لا يغنيه أنه قد كان على المسرح وزيراً أو حقيراً ، فالكل عند المحاسبة على تأدية الأدوار سواء ، وهذا عدل ، بل هذا هو العدل .

هو لعب وهو ، إذن في تقدير الشاعر الانكليزي لقيمة الأدوار التي تؤديها الناس في معيشتهم .. وهكذا الحياة الدنيا :

قال تعالى في سورة الأنعام : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » .
وقال تعالى في سورة آل عمران : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وقال تعالى في سورة الرعد : « وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » .

وفي ضوء هذه المشاهدات التي يكمل بعضها بعضاً ، يتعين القول : بأنه لا محل لجزع الفقير أو صاحب المنصب المتواضع ، وما عليه إلا أن يتقن عمله ، يتوقع من ولى الأمر أن يرعى شئون سائر الرعية .

ولا محل أيضاً لانتفاخ أوداج الغنى ، الواسع الرزق ، على مقوله : ان الله فضله بنص الكتاب ، لأن النص لا يقول بما يريد من فهم سطحي .

وإنما عليه أن يدرك بأنه مبتلى ، ومستخلف فيما بين يديه من مال ...

ذلك المال الذى يخيل اليه صاحبه ومالكه ، وما هو إلا عارية إلى

زوال ، ثم انه محاسب على تصرفه فيه .

ولننظر فيما بقى من الآية الكريمة من سورة النحل ، فى قوله تعالى : « فاما الذين فُضِّلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يحدون » . وهذا تفسير للابتلاء بالمال ، بمعنى الامتحان ، فالمال الذى يسخره الله سبحانه وتعالى للغنى بما يهيأه من ظروف متفاوتة لجملة الخلق ، ليس ميزة لمن ينتهى اليه هذا المال ، وإنما هو ملك لخالقه ، وما الانسان إلا مستخلف فيه . ومن ثم فقد تعيّن على الغنى أن يحسن معاملة أهله وعماله ، وجملة الشعب بما يخرجهم من زكاة وصدقات لمستحقها ، وبما يدفعه من ضرائب تذهب إلى إصلاح شؤون الطبقات الكادحة التى تريد أن تقول : « ربى أهاننى » ويردعها ربها بأشد ما فى ألفاظ العربية الفصحى من كلمات الردع بأنه : « كلا » ما هكذا أيها الانسان ، وما عليك إلا أن تتلو بقية آيات سورة الفجر ، حتى تصل إلى قوله تعالى :

« وجىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الانسان ، وأنى له الذكرى ، يقول يا ليتنى قدمت لحياتى » ويؤيد هذا النظر ، ما جاءت به الآيات الكريمة فى شأن الملكية الفردية ، أو الملكية الخاصة . . . صحيح أنها مستقرة وجائزة على المنقول والثابت ، وعلى أدوات الانتاج وأدوات الاستهلاك ، وسائر العروض القابلة للتملك . . .

وصحيح أن المالك يستطيع شرعاً أن ينتفع بما يملك ، وأن يستغله وأن يتصرف فيه ، وهذه هى مكنات الملكية الكاملة غير المنقوصة .

ولكن هلا تلوّنا قول الله تعالى في سورة الحديد : « آمنوا بالله
ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

وفي هذا تفصيل يضيق به الوقت ، ومن ثم فحسبى الآن أن
أقول : بأنه وإن كانت الملكية الخاصة لا تحمل قيداً تشريعياً يغل يد
المالك ، أو يحول دون التزيد من الملك .. إلا أنه يتعيّن النظر إلى
ما تنطوى عليه آية الاستخلاف من سورة الحديد ، وفي هذا تفصيل
يزيد على ما قدمنا .

موضع الربا من البناء الاقتصادي :

الآن فقط ، نستطيع أن نستبين موضع الربا من الهيكل العام
المشتمل على النشاط الاقتصادي ، لأنه صورة خاصة من المعاملات
بين الناس . وكان لابد لنا أن نجعل الصورة العامة الشاملة ، قبل أن
نتلمس موضع جزئية منها ، وذلك أنه قد عرفنا أن الناس على
تفاوت في القدرات ، ومن ثم في الأرزاق ، وأن هذا التفاوت لم يكن
تكريماً ، وإنما هو يستهدف أمرين :-

أحدهما : انتظام الحياة في دوراتها ، على نحو لا يتأقّى في حالة
المساواة الفظية .

والثانية : أن تكون الحياة الدنيا دار اختبار . ومعلوم أن الآخرة دار
جزاء ، وهى الباقية .

وعرفنا أيضاً : أن الغنى أو المقتدر مطالب أن يخرج عن العفو من
ماله ، وأن يرد رزقه على ما ملكت يمينه . حتى يكون فيه الجميع

سواء . وإلا كان جاحداً بنعمة الله منكراً لفضله ، خارجاً على إرادته سبحانه التي اقتضت وضعه في موضعه ، وهو مكلف بأن يعرف كيف يكون الشكر ، وأداء الحق الواجب فيما أكرم به ونعم ، على سبيل الابتلاء .

وعرفنا أن صاحب المال من الناس مستخلف فيه ، ومسئول عنه ، ومحاسب على إنفاقه ، وأن المالك الحق هو الحمى الدائم ، دون سواء .

ومن جملة هذه المفردات - إذا اجتمعت - تتكامل الصورة العامة التي أَرادها الرحمن للمجتمع الانساني ، وهو بسبيل مباشرة نشاطه الاقتصادي .

- مقتضى القدرة والغنى ، ألا يصدر عن المقتدر إلا السخاء .
- ومقتضى الضعف والفقر ، ألا يصدر عن الفقير إلا الصبر في عزة .

لأن الذى قدر على الفقير رزقه هو الله سبحانه ، لما فى ذلك من صلاح حال الدنيا . وليس فى ضيق الرزق امتهان للفقير أو إهانة .
- ومقتضى حمل أمانة الحكم أن يأخذ ولى الأمر العفو من المال من كل مقتدر ، وأن يرده فى وجوهه ، على نحو يقرب مسافات الخلف بين الناس .

ومن ثم ، يكون تصحيح الأوضاع الاجتماعية بالتشريع المالى فريضة على الحاكم .

ولولا التفاوت والمفاضلة الظاهرية، لما كان امتحان للغنى ولا للفقير، ولا لولى الأمر المسئول عن الرعاية.

وحين تدب الحياة فى هذه الصورة التنظيمية العامة، فإن انسياب الفضل من المال يجىء حتماً من القادرين إلى المحرومين.

ولكن انسياب الصدقات والزكاة والخدمات العامة يكون أصلاً، بفعل الخيرين من المقتدرين لأنهم يدركون بأن هذه وظيفتهم.

ويدخل هذا الانسياب الخير، من جانب الغنى المقتدر، إلى من هم فى ذمته من الخلائق، وإلى المجتمع عامة، من كل بقدر طاقته، فى جميع صور المعاملات بغير استثناء.

- فتقدير الأجر للعامل من رب العمل يكون مجزياً.

- وتقدير النفقة للزوج وللولد يكون مرضياً.

- وتقدير الثمن الذى يقتضيه التاجر من عميله يكون فى مكنته، فلا احتكار ولا استغلال.

- وتقدير الدولة للفرائض التى تصيب كل فرد، تكون فى حدود طاقته، ولا تصيب إلا العفو.

- وتقدير الدولة للإنفاق يكون ملحوظاً فيه رفع الضيم الواقع على المحتاج، وتحسين حاله، وشد أزره، لأن بقاءه فى مركزه المتواضع، ضرورى لحسن سير الحياة فى الهيكل العام الذى ينتظم جميع الأفراد النشطة فى المجالات الاقتصادية.

أما خصائص الربا :

- ومن حيث أن الربا - وإن كان مخففاً فيما يسمى بالفائدة - يجرى على خلاف كل ما تقدم ، لأنه يعتصر الفقير فيزيده فقراً ، ويركم على مال الغنى أوزاراً من فوق أوزاره .

- ويستغل حاجة المحروم - وهو عادة من سواد الناس - ومن ثم يتص دماء الكادحين باحتكار السلع ، ورفع الأثمان مما يترتب عليه ضعف الجماهير ، وهم قاعدة التنظيم الاجتماعى ، وهو هرمى الشكل ، كجميع الظاهرات المنتظمة الراسية ، ومن ثم يهتز البناء الاقتصادى بضعف الكافة ، وهذه الكافة هى جمهرة المشترين والمستهلكين ، والعاملين فى مجالات الانتاج ، وهم أيضاً الذائدون عن الحياض ، والساھرون على أمن الدولة .

- فإن إرھاقهم بالاستغلال الربوى ، هو مفسدة للمجتمع وإخلال بثبات القاعدة التى كان ينبغى أن تتلقى العون لأن تستعسر وتستغل .

- ويطغى الغنى لأنه يزيده قوة ، فيكون من الفرد أو من الجماعة الرأسمالية الربوية دولة ، أو دويلات تناهض سلطان ولى الأمر ، وتهدد الأمن والاستقرار بما تملكه من مال فائض ، تسخره فى الطغيان ، كما نصت الآيات الكريمة صراحة حين قررت : « إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » . (١)

(١) الآية ٦ من سورة العلق .

- ويشيع الخوف في جميع الطبقات ، فالضعيف المحروم غير آمن على رزقه ، لأنه من شأن التنظيم الربوى إلا يكون فضل في المعاملة ، ولا عفو ، ولا صدقة ، وقد قال تعالى : « وأن تصدقوا خير لكن إن كنتم تعلمون »^(١) .

- والقوى الغنى الغاصب يعيش في خوف على ماله الذى يجمعه باستغلال التفاوت الذى اقتضته الحكمة الإلهية وقد ظنه تكريماً لذاته الفانية ، سفاهة منه وجهلاً

وحين يشيع الخوف فإن الثقة تنعدم ، ويحل مكانها سوء الظن والتربص .

- وتثبت الجريمة ، فالمحروم يحقد ، والمبطلون يبطش قبل أن تدور عليه الدوائر ، ولهذا تشيع الجريمة في جميع الأوساط الرأسمالية الربوية ، على صورة لا نظير لها في ظل المدنية الريفية التى كان فيها بلاء المعاملات الربوية محصوراً

- ويزعزع العقيدة ، فالغنى يطغيه سلطان المال ، وقد ينجح في فرض مشيئته على السلطات العامة ، بالاسترهاب أو بشراء الذمم ، وبتكرار فرض المشيئة ينسى أنه بشر تافه زائل ، فيقول بمقالة فرعون : « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتى » .

- والفقر يطول انتظاره للإنصاف ، وتزايد عليه البلوى ، فيضل ، وقد يلجأ بالشكوى ، ولو فيما بينه وبين نفسه المكلمة ،

ويتساءل : أين عدل الله ؟ وعندئذ ينسى أنه مبتلى لا أكثر ولا أقل ، وأنه غير مهان . ولكن العقيدة تتأذى على كل حال ، عند هذا وذاك على السواء .

- ويفسد المجتمع بما يضيفه عليه من مادية مسرفة خالصة : فالفقير يفرط تحت ضغط الحاجة ، والغنى يستثرى من فيض ماله الذى يتزايد ، فتهدون الأعراض وتنحل الأسر . ولقد أحسن فى وصف هذا الحال كثير من كتاب الغرب الذين فزعوا فى أيامنا هذه من بلاء الرأسمالية الربوية ، ومنهم : (أندريه سيجفريد الفرنسى ، وآرثر لنك الأمريكى ، وآرثر ستريت الأمريكى ، وغيرهم كثير) .

* * *

ولكن ما هو الربا ، إذا كان هذا هو موضعه وتلك هى آثاره ؟

- الربا فائض القيمة ، الذى يأكله القوى دون مبرر .

- والمعاملة الربوية ، هى كل عقد يكون من شأن تنفيذه استغلال حاجة الضعيف ، وزيادة الفقير حرماناً ، وزيادة الغنى ثراء حتى يطفئ .

- الربا هو الاحتكار ، وانتهاز الفرص واستغلالها .

- الربا هو تجارة الموت كما يسميه الكتاب الغربيون الآن : ومن شأنه أن يشعل الرأسماليون الحرب وإن أكلت أكبادهم فى سبيل مضاعفة رأس المال ببيع السلاح .

- الربا هو الكسب الفاحش ولو في عقد يتشابه مع البيع .

- الربا هو الامتياز الذي يؤدي الى استئثار شعب غنى مقتدر
بمخيرات شعب فقير متخلف ، تقضى الانسانية بترشيده ، والتعاون
معه .

- الربا هو أكل مال يكسبه صاحبه بغير جهد أو بذل ، وإنما
بمجرد الانتظار واستغلال حاجة المحتاج ، أو باستغلال فرص القحط
والجوع إذا إنتشرت الفاقة .

هذا هو الربا ، وقد عرفنا موضعه من التنظيم الاقتصادى وهو
أشبه شئ بتيار جهنمى ، مصدره الشيطان ، يعاكس انسياب الفعل
الخير ، فى التنظيم الاقتصادى .

وذلك أن الأوضاع الطبيعية كما قدمنا ، تفرض التفاوت الأبدى
بين الناس فى قدراتهم ، وفى أرزاقهم ، ومن ثم فإن الحياة المطمئنة
لشعوب الأرض قاطبة لا تكون إلا على مقتضى هذا الحال .

وأما المقتضى الذى أشرنا إليه ونؤكد ، فهو أن يصب الوعاء
الملىء فى الأوعية الخاوية ، ولكن بمقدار ، وعلى قدر الطاقة .

أيها السادة :

قبل أن نفكر فى تأويل أحكام الله على نحو يجعلها تتسع ، قسراً ،
للأنظمة التى سادت فى ظل المادية الخالصة بعد أن تنكر واضعوها
لكل سلطة روحية ، وبعد أن فصلوا بين دراسة الأموال عندهم
وبين الفلسفة والأخلاق ، علينا أن نبحث ولو على سبيل

الاحتياط ، عما إذا كان النظام الربوى قد أسعد الذين طبقوه أم لا ؟

والجواب الذى تزخر به مؤلفاتهم : أنهم أشق من على وجه الأرض ، بما دبّ فيهم من فساد وانحلال ، وبما جثم على صدورهم من خوف التدمير والمحق ، وقد كانوا لأدواته مبدعين وصانعين ، وفى هذا بلاغ !

خاتمة القسم الأول

بقيت فصول نوجزها في كلمات. وهذه هي :

١ - إن الصور التي عرفها السلف الصالح وناقشها في إسهاب وهي ربا العهد . ونحن نسترشد بها ونقيس عليها . ولا نعتبرها محددة للمعاملات الربوية على سبيل الحصر .

٢ - كل المعاملات الربوية تتفق في أمر واحد هو الاتجاه الى معاكسة التيار الخير في المعاملات . وقد تميز عن غيره بمعبار لا يخطئ ، وهو ألا يكون من شأنه زيادة التفاوت الطبيعي المفروض على البشر لمصلحتهم ، على ما بينا . . . ومن ثم يكون كل من الربا الجلى ، والربا الخفى ، وربا الفضل ، وربا النسبة مفسداً لسير الجهاز الذى وصفناه .

وبهذا تتضح حكمة التحريم جلية واضحة .

٣ - لا تصمد الشبهات التى يثيرها البعض على المناقشة العلمية ، ومن ذلك قولهم : بأن المقرض بالفوائد الثابتة فى زمننا هذا هو الفقير ، والمقترض هو الغنى . فإذا أجبنا الفائدة الثابتة أدخلنا فى تشريعنا نصوصاً تحمى الدائن الفقير من حيف المقرض الغنى ، ويقولون أيضاً : بأن هذه التطورات حديثة فى الأوضاع الاقتصادية لم تكن لعهد التزليل ومن ثم فإنها تتطلب الاجتهاد ، تحقيقاً للمصلحة ودفعاً للضرر ، وتطويراً للأحكام المعمول بها عندما حتى تلائم العصر ، وهكذا يقولون .

وأقول : لا .

لأن إنشاء المشروعات يتلخص في منح المدخرات من سواد الشعب ، وتجميعها في أيدي جماعة من المروجين وأصحاب الفكر الاقتصادي ، أو الخبرة العملية (والمنح هو المص أو الارتشاف) .

وهم بما يجمعون من مال الناس يحصلون على قوة انتاجية لا تتسنى لهم بغير هذه الوسيلة ، ومن ثم ، فإن الثمرة التي يجود بها المشروع هي من حق المدخرين : وهم المساهمون أو المقرضون .

وهذه الثمرة يجوز عليها النقص كما تجوز الزيادة ، وكل تحديد للثمرة سلفاً يراعى فيه الحذر ، والإبقاء على فائض ينعم به الاقطاعيون من أصحاب المناصب الإدارية أو من مروجي المشروعات . والحماية التي يراد مدها على المقرضين الصغار هي مجرد دعاية تروج في سوق رأس المال . . . وفي هذا تفصيل وتفصيل .

٤ - وقد يقال : وكيف السبيل الى تطهير المصارف من المعاملات الربوية ، إذا كانت الفائدة هي الربا المخفف ، فأقول بأن المصارف هي امتداد لبيت المال وهي تؤدي وظيفة لا تنبغي إلا للدولة ، وإن القابض على الائتمان ، قابض على كل نشاط اقتصادي .

وحين تتركز المصارف كلها ، كما هي الحال في سك العملة المعدنية وطبع الورقية في يد الدولة . . . أو بعبارة موجزة ، حين تؤمم المصارف كلها ، فإن الدولة تضع الأنظمة الكفيلة بتوزيع الائتمان

وفاقاً للتخطيط الاقتصادى العام .

وأما نفقة المصارف - وهى عندئذ حكومية - فتكون من حصيلة الضرائب ، وغيرها من موارد الدولة . وإن ما يجنيه النشاط الاقتصادى من سلامة الخطة التى تتبعها الدولة فى منح الائتمان بغير مقابل ربوى ، يعود على الانتاج ، وحركة المعاملات بفائض من الربح المباح فى صورتى من الأجور ، وربح التاجر والصانع . وهذه تدور فى فلك الدخل القومى فتزيده سرعة . كما تزيد من أوعية الضرائب ومن حصيلتها .

وهذا يجنى الشعب وتجنى الدولة بتنظيم الائتمان المزمع عن العقد الربوى ، أضعاف ما تجنيه المصارف بخنقها للاقتصاد ، حين تتبع فى مد الائتمان جهاز الثمن ، المعمول به فى الأنظمة الربوية .

وإنه لجدير بالذكر أن حملة الفوائد التى جناها المقرضون فى السنة الأخيرة ، من عقودهم الربوية لا تصل الى خمسة عشر مليوناً من الجنيهات فى الاقليم المصرى . فاق قيمة هذا القدر بالقياس الى الدخل وهو يناهز تسعمائة مليون من الجنيهات . ؟

٥ - إن القروض الدولية لا تتأثر بإلغاء الفوائد ، والشواهد كثيرة :-

ذلك أن الأسواق الغنية برؤوس الأموال لا تقرض من أجل الفائدة ، بل من أجل تنشيط الاقتصاد فى إقليم متخلف ، بقصد استغلاله ولو كانت الفائدة هى كل الأمل والجزاء ، لما فكرت

الدولة الغنية في الاقتراض .

ودليلنا على ذلك أن التاريخ الحديث يسجل عشرات من الأمثلة على تقديم المعونة المالية في صورة هبة . ويشتمل التاريخ الحديث أيضاً على أمثلة من إسقاط الديون كلها عن الأقاليم المدينة حتى تنتعش ، وتعود قادرة على الشراء .

وما دامت أسواق رأس المال تهب الأصل ، وتنزل عن رأس مال الدين ولا تتوقف عن تكرار ذلك ما بدت لها مصلحة ، فكيف نتصور أنها تكف ل مجرد تحريم الفائدة ؟

٦ - لا يجوز لى أن أترك الإشارة الى أن من رجال الفكر الاقتصادى من أمثال (اللورد كينز) المتوفى سنة ١٩٤٦ - من قال بأن سعر الفائدة لا يمثل التلاقي بين الادخار والثمار ... لأن الثمير يتحكم فيه مفهوم آخر يعرف بالانتاج الحدى لتوظيف رأس المال ، فأما الفائدة فهي الحافز عن الادخار . وفي هذا تفصيل ...

وحين تنتزه أعمال المصارف الحكومية عن أخذ الفائدة وإعطائها ، فإن المعادلات الرياضية تعوض النشاط الاقتصادى بأوضاع بديلة فيها الكفاية ، وعلى صورة أوفى من حيث التحقيق للعدالة عند التوزيع .

ومن الصور الرياضية المعروفة ما يعرف بالمعامل ، وهو أسلوب رياضى لقسمة الثمرة على أسس من واقع الربح بعد أن يتحقق ، ومن ثم فإنها صورة منزهة عن التحديد سلفاً ، وليست فيها أدنى

شبهة من شبهات القرض الربوى .

٧ - وأود أن أسجل تحية لأولى الأمر ، بمناسبة ما اتخذوه حيال منشآت التأمين ، لأن من هذه المنشآت ، ما يصل نشاط الواحدة بمفردها أضعافاً مضاعفة ، لجملة نشاط النظام المصرفي مجتمعاً في سوق رأس المال .

ومن ثم فإن عناية الدولة في عهدنا هذا ، بدخول سوق رأس المال ، يعتبر بادرة خير . ومن أهم ما يلاحظ : أنه حين تجمع الدولة في قبضتها شؤون الصيرفة في جميع صورها ، وشئون التمويل الخارجى أيضاً ، فإن هذا التنظيم وحده - وهو ما أفهمه من آيات تحريم الربا - يكفل للدولة سيطرة تامة على جميع أوجه النشاط .

ويبقى بعد ذلك أن تمارس قدرأ من الرقابة الفعالة ، دون حاجة الى ارهاق أدوات الحكم بتحمل تبعات القيام بالانتاج وبالتوزيع . وفي هذا تفصيل جد خطير وبالغ الأهمية ، لأنه يكشف لنا ، أو يتمم على الأصح الصورة البالغة الأحكام التى توحى بها أحكام الاسلام فى شئون الاقتصاد .

ملاحظة :

وأختتم حديثى - بتوكيد ما بدأت به من أحكام الاسلام فى شئون الاقتصاد ، ومنها تحريم الربا ، هى أحكام ثابتة وواقية . لا يجوز عليها التطور أو التطوير ، لأنها معجزة من صنع الله . وما علينا إلا أن نتابع النظر فى تفصيلات هذه الأحكام . حتى نصل الى

التصور الصريح المأمون لأساليب تطبيقها ، في مواجهة عالم لم يؤمن
بها بعد ، وفي يقيني ، أن خير دعوة نقوم بها لدين الله ، هي أن نبدأ
بأنفسنا فنعمل على تطبيق أحكام الله ، وهي أصلح الأحكام بدون
جدال . وسنوفق غاية التوفيق بإذن الله ، وسيكون من هذا التوفيق
دعوة الى هذا الدين الحنيف ، لا تدانيها جهود البعث ، ولا سيول
من الخطب والمقالات .

وَضْعُ الرِّبَا فِي الْبِنَاءِ الْاِقْتِصَادِي

القسم الثاني^(١)

هذا هو القسم الثاني من حديثي عن « وضع الربا في بناء الاقتصاد القومي » وفيه تكملة لما بدأت به .

وأرى لزماً أن أنبه الى أسلوب البحث في كل من القسمين فقد تجنبت - الى حد بعيد - إيراد النصوص المعروفة وما ثار بشأنها من خلاف في الرأي ، لأن هذا القدر من الدراسة موضوع الربا بوجه عام قد لقي من قبل عناية مشكورة .

فإن كان لابد من الرجوع الى ما هو مألوف من الجدل ، فسأحرص على الإيجاز والتلخيص ...

إن مراجع الفقه زاخرة بفيض من العلم ، ولنسنا في حاجة الى مزيد من الخلاف حول الرواية والإسناد وإنما نحن في حاجة الى بحث موضوعي يتناول حكمة التشريع على ما ظهرت من التطبيق قديماً وحديثاً .

ولئن قصرت الاستشهاد على أقوال السلف الصالح ، وغيرهم من أئمة الفكر الاسلامي المحدثين والمعاصرين ، لقليل بأن الباحث يتجنب الفكر الغربي الذي تطور في ظل الثورة الصناعية تطوراً هاماً .

(١) كان إلقاء هذه المحاضرة الثانية ، بالعنوان ذاته ، في قاعة الإمام محمد عبده بالجامع الأزهر يوم الثلاثاء ٣ من رمضان سنة ١٣٧٩ هـ (١٩٦٠/٣/١) .

لذلك رأيت أن أشير الى أقوال بعض أساتذة الغرب مما له صلة بالموضوع ، حتى يتضح مدى ما تفردت به أحكام الاسلام من صلاحية لكل عصر ومصر ، اذ لم يزد تطوير الفكر الاقتصادى عن مجرد الاقتراب من المثل العليا التى يقررها الشرع الحنيف ، أو التى قررها من أربعة عشر قرناً ، دون أن يصيبها ضعف أو وهن عن تنظيم النشاط الاقتصادى فى جميع مستوياته .

وأبدأ هذا القسم الثانى بتلخيص ما قدمت فى القسم الأول لما فى ذلك من تمهيد وربط بين ما تقدم وما تأخر من القول .

تلخيص القسم الأول

الحديث مقصور على موضع الربا من البناء الاقتصادى ، ومن ثم فإن مفهوم الربا - فى خصوصه لا يستأثر بكثير من البيان . . وإنما ينصرف معظم القول إلى آثار المعاملات الربوية فى جملة النشاط الذى يستهدف تحقيق الرفاهة الاقتصادية ، مع بيان تطور هذه الآثار من العصر الوسيط للآن .

أحكام الاسلام ، كما وردت فى القرآن الكريم جاءت كاملة واضحة ، وبالتالى لا يجوز القول بنأويلها أو التزيد فى تفسيرها ، حتى تتسع لأوضاع اقتصادية أو معاملات مالية لم تكن مألوفا لعهد نزولها .

وسيتضح على القليل من التأمل أنه ما من حالة تصطدم فيها الأوضاع والمعاملات مشوبة بالفساد ومحقة للضرر .

بتطوير علم الاقتصاد ، أصبح مستقراً الآن عند المشتغلين بدراسته ، أن الثروة ليست مفهوماً مادياً خالصاً ، وإنما هي وسيلة الى غاية . فأما الغاية فهي رفاهة الانسان بوجه عام وفي ضوء هذا التطور لنماذج الثقافة الغربية اقتربت النظرية العلمية كثيراً من المعاني الواضحة الثابتة التي تقول بها الشريعة الاسلامية .

ومن حيث أن النزاع مستمر بين مدارس الفكر الاقتصادي ولم تحقق إحداها سلاماً للبشر ولا استقراراً للمجتمعات ، فقد تعين على الأمة التي تتلو كتاب الله كما أنزل ، أن تنشط الى مزيد من البحث لعلها توفق الى جلاء الحقيقة الواحدة في هذا الأمر ، وهي أن أحكام الاسلام وحدها هي الأحكام التي تحقق لولد آدم عليه السلام ، أكبر قدر ممكن من الرفاهية في الحياة الأولى . ومن هذه الأحكام تحريم الربا تحريماً قطعياً ، ما كان منه جلياً وما كان خفياً .

مشكلة الربا فرع على أصل : أما الأصل فهو الثمن العادل . والربا هو فائض القيمة . وفائض القيمة هو ذلك القدر من حق الغير الذي يأكله القادر لتمتعه بمرکز مميز . كالمقرض في معاملته للمقرض ، ورب العمل حين يبخر أجر العامل ، وريح المحتكر حين يتحكم في الأقوات والأرزاق . . . ومن ثم يدخل في مدلول لفظة الربا كل اعتصار للضعيف ، واستغلال لمركز خاص ، أو ميزة احتكارية تؤدي الى زيادة الضعيف ضعفاً وزيادة القوى قوة .

أخطر ما يتعرض له الفكر الاسلامي في وقتنا الحاضر ، ذلك القدر الموروث من الولاء السلبي للأمم الصناعية القديمة ، التي

جمعت أرزاق الشعوب غصباً ، خلال القرن التاسع عشر ، ثم اشتد الخلاف بينها فيما انقضى من القرن العشرين .

وأخطر صور هذا الولاء السلبي اقتناع بعض المسلمين بضرورة الفصل بين شئون الدنيا وأحكام الدين . وإذا كان في تاريخ الكنيسة وموقفها من التجارة والصناعة والمعاملات الربوية ما يبرر الفصل الذى أخذ به الغرب ، فإن أحكام الإسلام تفردت بكونها منزلة من عند الله ، ولا تشوبها شائبة ، ولئن كانت الحضارة الغربية قد ملكت علينا تفكيرنا بعض الوقت ، فإنه يتعين التنبيه الى أن هذه الحضارة المادية لم تسعد أهلها ، وإنما جرّت عليهم الكوارث .

وفي الوقت الذى ينادى فيه علماء الغرب بالرجوع الى الدين والأخلاق (كما يقولون) لا يجوز لنا بحال أن نظن بأن التقدم المادى الذى حققه الغرب قد كان نتيجة مباشرة للفصل بين الدين والدنيا عندهم . وإنما له أسباب عارضة ، آتت آثارها خلال القرنين الأخيرين ، ثم تكشف هذه الأنظمة المادية الخالصة عن فساد لا يؤدى إلا للهلاك . ومعلوم أن المركز الراهن للشعوب التى أسرفت فى المادية بعد أن تنكرت لحكم الدين فعلاً وعملاً ، أصبحت الآن فى مركز لا تحسد عليه . وليس من شأننا الآن أن نبارك رجوع الغرب لحكم الكنيسة - إذا عاد - وإنما من شأننا فقط أن نقول بأن كل دعوة الى فصل أحكام المعاملات المستحدثة فى العالم كله عن معايير الإسلام - قياساً على الفصل بين الدين والدنيا فى الغرب - هى دعوة ظاهرة الفساد . وفى أحكام الإسلام ضوابط كافية وواضحة

لجميع المعاملات بدون استثناء وكل عقد أو أخذ وعطاء لا يسترشد بأحكام الإسلام .. لا يحقق نفعاً وإن كان في ظاهره يبدو وكأنه يدفع ضرراً أو يجلب خيراً . وقد ضربنا الأمثال وسنزيد أمثلاً أخرى .

المغايرة فيما بين الخلائق سنّة ثابتة ، كالمغايرة فيما بين الأجرام السماوية ، وفيما بين بقاع الكوكب الواحد الذي نعيش فيه ... من حيث التربة والمناخ وما على الأرض من دابة .

المغايرة بين الناس إذن ظاهرة أزلية ، تتمثل في تفاوت الأفراد من حيث الطاقة على العمل بكل مستوياته ، ما كان منه جهداً ذهنياً أو عملاً آلياً ... وما كان منه مهارة وحذقاً يؤديان للإبداع وتحسين الأساليب ... ومن حيث الإقبال على بذل الجهود المضنية وتحقيق إضافات للثروة ...

ومن حيث التلهف على إشباع الحاجات وتحمل التضحيات العاجلة وتجنب المدخر وتنميته .

ويخلص من هذا كله تفاوت الأرزاق لحكمة بالغة . وهذه الحكمة هي أساس بناء المجتمع الذي لا يصلح إلا على وجود طبقات كادحة وأخرى منظمة مدبرة ، وطبقات تقيم المشروعات وتدخر الأموال وأخرى تؤثر الدعة النسبية والمتاع البسيط العاجل ولولا هذا التفاوت لوقف دولا ب النشاط الاقتصادي ، بل لما كان له وجود ...

وفي ثنايا هذا الهيكل العام الذى يتألف من جزئيات متفاوتة الطاقات والقدرات وأنماط المعيشة ، يوصينا الإسلام بأن تجرى المعاملات بين الناس على أساس واحد ينتظمها جميعاً ، وإن اختلفت صورها . أما هذا الأساس الواحد ، فهو ما أسميه الانسياب الخير الذى تشيع فيه الرحمة والتأخى بين الفرد والفرد . وبين الفرد والمجتمع ، وبين الفرد والدولة .

ومن خصائص الربا أنه يعتصر الضعيف حتى يزهد أنفاسه . وأنه لا يدع للطبقات المحرومة والمجاهير الكادحة إلا مجرد التسليم بالأمر الواقع . ولئن كانت هذه الطبقات تتظاهر بالرضا ما بقيت مغلوبة على أمرها . . . إلا أنها لم تترك على تعاقب الأجيال فرصة مواتية إلا وثارت على المعاملات الظالمة . ومن ثم كانت الثورات ومنازعات الطبقات فى كل مجتمع أعرض عن ذكر الله ، ومن ثم أيضاً كانت ثورات الشعوب على المدنية المادية الخالصة التى يقوم استغلالها لهذه الشعوب على قواعد من أكل فائض القيمة ، وهو بعينه الربا .

لم يسفر الأخذ والرد فى قضية الربا عن رأى موحد ، بل تكاثرت الشبهات ومن بين هذه الشبهات ما يبدو وكأنه حق .

لذلك يتعين البحث فى بعض هذه الظواهر ، التى حملت كثيراً من الباحثين على الظن بأنه من المعاملات المستحدثة ما يفرض على المسلمين أن يجتهدوا من جديد للملاءمة بين أحكام الدين الإسلامى ، وصور النشاط الاقتصادى الضخم الذى لم يكن

للمسلمين به عهد . وبخاصة ما كان من تقدم سريع في علوم الطبيعة والصناعة والتجارة خلال مائتي عام من وقتنا هذا .

وأخطر هذه الشبهات القول بإجازة الفائدة المعتدلة لقرض الانتاج ، حماية للمقرض الضعيف حيال المقرض الغني المقتدر . . وقيل في تبرير هذه الدعوة بأن الأوضاع الاقتصادية تتطور وتشهد من صور المعاملات ما هو غير مألوف ولا يجوز بحال أن يتخلف المسلمون عن ركب الحضارة إذا هم تمسكوا بحرفية التحريم .

وسنوضح في مناسبة أخرى إن شاء الله بطلان هذا النوع من الشبهات ، ومدى ما فيه من ضرر بالاقتصاد ، وفساد في الرأي .

إذا أردنا أن ندعو لدين الله ، فإنه من خير الوسائل أن نتوفر على دراسة أحكامه ، وأن نجتمع بين شتى الثقافات لعلنا نصل الى رأى نقنع به ثم نطبقه . وفي نجاح التطبيق ، وإيجاد مجتمع مسلم ومبرأ من عيوب المادية المسرفة ، دعوة فعالة لا تعدلها سيول من الخطب والمقالات .

خلاصة للجدل حول النصوص :

روى عن سيدنا عمر رضى الله عنه أنه قال . (إنا والله ما ندرى لعلنا نأمركم بأمر لا تصلح لكم ولعلنا نهاكم عن أمور تصلح لكم ، وإنه كان من آخر القرآن نزولاً آيات الربا ، فتوفى رسول الله ﷺ قبل أن يبينه لنا ، فدعوا ما يريكم الى ما لا يريكم) ، وروى عنه أيضاً أنه قال : (لقد خفت أن نكون قد زدنا

في الربا عشرة أضعافه بخافته) . وروى عن ابن عمر رضي الله عنها أنه قال : (انه ليعجبني أن يكون بين الحلال والحرام ستر من الحرام) . وكان الصحابة والتابعون يسرون على سنة رسول الله (ص) في النهي عن الشبهات لأن الوقوع فيها قد يؤدي الى الوقوع في الحرام . وما يروى عن رسول الله (ص) أنه قال : « إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشتهيات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات ، وقع في الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب * »

* * *

وقد سار كثير من المجتهدين الأوائل على هذا النهج وتحرّجوا من الشبهات ، بل تحرّجوا من شبهة الشبهة ، تنزيهاً لدينهم وإيثارة للخلاص من عذاب شديد نصت عليه الآيات الكريمة بالقول الصريح . وفي كل زمن تال وجد من يتبع هذه السنة الواضحة إلى يومنا هذا . . . ومن ثم فقد دعوا إلى نظرية يقال لها نظرية التوسع في تحريم المعاملات الربوية ، ما كان منها قطعى الثبوت ، وما خيف منه أن يكون وسيلة أوزريعة إلى الربا .

* مختصر صحيح مسلم تحقيق محمد ناصر الدين الألباني :

قيل في نقد هذه النظرية : بأن التشدد في تأويل الأحكام عند
 تطبيقها لا ضير فيه إن كان الأمر متعلقاً بعبادة . فأما المعاملات فلها
 وضع خاص يستلزم من المجتهدين أن يكونوا على بينة تامة بما
 يقطعون بتحريمه ، حتى لا تعطل مصالح الناس لمجرد درء الشبهات .
 وقيل أيضاً : بأنه إذا تعين على الإمام أن يتحرّج من التسامح في
 حكم من أحكام الله ، فإنه مطالب أيضاً بأن يتحرّج من تكليف
 الناس بما لم يكلفهم به الشارع ، خشية إيقاعهم في المشقة على نحو
 يتنافى مع إحدى خصائص الدين الحنيف ، وهي خسيصة اليسر في
 غير تفريط .

لذلك وجد في كل عصر جماعة من الفقهاء تدعو إلى قصر
 التحريم على كل معاملة اكتملت لها عناصر الربا المحرم . ومن ثم
 نشأت مفاهيم ترمز لنظرية أخرى تنزع إلى تحديد مجال التحريم
 وعرف في الفقه كل من الربا القطعي والربا الجلي ، تمييزاً لها عن
 الربا غير القطعي أو الربا الخفي .

وروى أن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، كان على
 رأس المنادين بأنه لا ربا إلا في النسيئة ^(١) ، ثم جاءت من بعده
 أجيال من الفقهاء الأعلام يؤيدون هذا النظر ، ويزيدون أن الربا
 القطعي هو ما كان معروفاً في الجاهلية ، ونزل القرآن الكريم بتحريمه
 أما ما عدا ذلك من بيوع وردت بشأنها أحاديث تنهى عن

(١) النسيئة : التأخير والتأجيل ، يقال (باعه بنسيئة) أى بتأخير دفع الثمن .

اقترافها ، فقد أخذت حكم الربا بالقياس لا بالنص القطعي ،
وذلك سداً للذريعة إلى الربا . ومن هؤلاء الاعلام ابن رشد الحفيد
المتوفى في سنة ٥٩٥ هـ ، وابن القيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ .

كما أن فقهاء الظاهرية قصرُوا مفهوم الربا على ستة أنواع
عددوها ، وتابعوا مذهبهم في الأخذ بالظاهر دون قبول القياس
كمصدر من مصادر التشريع .

ومن أوائل القرن الرابع عشر للهجرة ، قامت طوائف من دعاة
الاصلاح تبحث هذا الأمر من جديد وتعنى بدراسة المعاملات
المستحدثة في منشآت العصر كالبنوك ، وصناديق التوفير ، ومنشآت
تكوين رؤوس الأموال ، والبورصات وشركات التأمين . وجهدت
هذه الجماعات في التمييز بين معاملات يلحقها الفساد وإن لم تكن من
الربا في شيء ، ومعاملات ربوية قطعية ، ومعاملات رأت أن لا حرج
من ممارستها . ومن هؤلاء المحدثين الشيخ محمد عبده ، والسيد محمد
رشيد رضا . وهؤلاء الفقهاء ، من القدامى والمحدثين يدعون إلى
نظرية التحديد . . . بمعنى تضيق مجال التحريم .

* * *

كذلك وجدت آراء تدعو إلى الاعتدال في التحديد . ومن ذلك
مثلاً ، أنه عند المعتدلين في التحديد أن الأصل في ربا الفضل هو
التحريم ، وتجيء الإباحة للحاجة استثناء ، على حين أن القائلين
بالتحديد (من أتباع نظرية ابن عباس وأصحابه) يرون أن الأصل

فما يعرف بربا الفضل هو الإباحة . . . إذ لا ربا إلا في النسبة .
وقد عني السيد محمد رشيد رضا بتقريب النظريتين الأخيرتين . ثم
انتهى إلى رأى لا يكاد يختلف عن النظرية المحددة ، إذ حصر الربا
المحرم في ربا الجاهلية . ولا يدخل في هذا المفهوم كل من القرض
بفائدة تشترط عند العقد ، ولا بيع الأصناف الستة الواردة في
السنة . وفي أقوال الفقهاء المجتهدين تفصيل واف يدور حول
جزئيات كثيرة كالكلام عن الحاجة مثلاً . . . وفي هذا إسهاب يحده
الراغب في مزيد من الاطلاع . . . في كتب الفقه . وهي وفيرة المادة
وبالغة الإفادة .

ومن جملة هذا العرض الموجز يتضح أنه إلى يومنا هذا تواجدت
ثلاث نظريات ، تقول بالتوسع وبالتحديد ، وبينها نظرية تقول
بالتوسط أو بالاعتدال في التحديد .

وكل من يطلع على الجدل الطويل الذي أثاره الفقهاء ، لا يملك
إلا التسليم لهم بالتمكن من علوم الكلام وسعة الاطلاع على التشريع
الإسلامي . وفي أقوالهم ثروة جديدة بالدراسة دائماً ، لأنها صورة
رائعة من صور المنطق السليم وقوة العارضة . ثم إن الحرص على
الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى دون تفريط من ناحية ، ودون
تكليف لا سند له من ناحية أخرى - قد كان الدافع إلى طول
الجدال وتجده .

وفي القرن الرابع عشر أيضاً، اتجهت أنظار بعض البلاد
الاسلامية - كإندونيسيا والهند - إلى « مصر » لإفتائها في دينها ،
بمناسبة ما انتشر فيها من بيوت مالية تقدمت الإشارة إليها .

ومعظم ما صدر من الفتاوى قد أخذ بنظرية التحديد .

* * *

انتهى هذا الجدال إذن إلى تراحم النظريات الثلاث على مركز
الصدارة . اذ بقيت طائفة من الناس لا تطمئن إلا لحرفية النص
القاطع بتحريم الربا تحريماً باتاً لا يحتمل التأويل ولا الاجتهاد
ونشطت طائفة إلى متابعة تدعيم نظرية التحديد خلال ما انقضى من
القرن الرابع عشر للهجرة ، وتوسطت طائفة ثالثة تقول بفساد بعض
المعاملات وبتحريم ربا النسبة ، وإباحة معاملات يظن القائلون
بالتوسع ، أنها قطعية التحريم .

ومن أخطر ما استند اليه الداعون إلى التحديد ، ومن ثم إباحة
أنواع حديثة من المعاملات ، قول بعضهم^(١) : (أحس الفقهاء من
قديم بما تنطوى عليه النظرية المتوسعة من شدة وماتبعته في الناس
من حرج في مختلف معاملاتهم مما جعل بعض القائلين بها يجتهد دائماً
في التخفيف من غلوها ، بما يدفع عن الناس هذا الحرج ويجعلهم
يحسون بأن الدين يسر لا عسر وأنه لا يتعارض مع مقتضيات
الحياة .

وقد كان من الطبيعي لذلك أن تتجه أبحاثهم نحو المعاملات المالية

(١) راجع مقال الاستاذ ابراهيم زكى الدين بدوى في كتابه « نظرية الربا المحرم »

التي رأوا، من انتشارها وعموم التعامل بها، ما يدل على حاجة الناس إلى التيسير فيها، فوجدوا أن أكثر هذه المعاملات انتشاراً وأعظمها مساساً بحاجة العصر عمليات القرض بفائدة. الذي تغيرت نظريته تغيراً تاماً في هذا العصر عنها في العصور السالفة.

فقد كان عامة طلاب القرض هم المستهلكين من المحتاجين والمعوزين، ولم يكن للدين أية صفة من صفات الانتاج. ولذا قال النبي عليه السلام: (القرض صدقة) لأنه لم يكن يحتاج اليه في الغالب إلا مستحقو الصدقات ومن على شاكلتهم.

وكان الدائنون هم الأغنياء الموسرين، وكان الباعث للمدين على الاستدانة هو سد الحاجة لقوت وغيره من حاجيات الاستهلاك المحض. لذلك لم يكن سداد الفائدة هو العسير فحسب بل سداد أصل الدين نفسه. وكان المدين يدفع ثمن عجزه عن السداد من حرите وجسمه وتعبه، إذ كان يحبس في الدين إذا كان عبداً ويسترق إذا كان حراً في بعض البلاد. وهذا ما جعل فقهاء المسلمين الذين كانوا لا يزالون متأثرين بهذه الحالة يحرصون على إلحاق القرض بالفائدة بالربا في حرمة، مع ما في أدلتهم على ذلك من ضعف وتكلف، وكان هدفهم الأول من ذلك تقوية روح التعاون، التي كانت موجودة إلى حد ما في تلك العصور، للبر بالفقير وفك كربة المحتاج، على الأقل بمد يد المعونة اليه بالقرض الخالي عن الفائدة. مستعينين في ذلك بالعاطفة والعقيدة الدينية، وما كان لها من سلطان على النفوس، فحققوا هذه الغاية في تلك

العصور إلى حد كبير .

أما اليوم ، فقد تغيرت الأحوال ، فلم يعد عامة طلاب القرض من المستهلكين الذين يستدينون من الأغنياء والموسرين لسد حاجة استهلاكهم ، بل انعكست الآية فإن الأغنياء وكبار التجار ومؤسسى الشركات الكبرى وأصحاب البنوك والدول العظمى وملوك مناجم الذهب ، هم الذين يؤلفون الأغلبية العظمى لطبقة المستدينين ، وعامة الشعب من العمال وصغار المستخدمين وغيرهم هم الذين يؤلفون الأغلبية العظمى لطبقة الدائنين فأولئك يأخذون من هؤلاء ما يوفرونه من أقواتهم وأجور مساكنهم وملبسهم ، ليثمروه ويغفلوا على أصحابه جزءاً ضئيلاً من أرباحه . فالباعث على الاستدانة الآن ، لم يعد شراء الأقوات للاستهلاك تخفيفاً من غوائل الفقر والعوز ، بل أصبح الباعث هو سد حاجة الانتاج طمعاً فى الكسب وتنمية الثروة على حساب الدائنين المساكين من الدهماء وعامة الشعب . فالخلق بأن يستثير الشفقة ويتطلب الحماية الآن هو الدائن لا المدين ، لأن المدين لم يعد ذلك الرجل الضعيف الذى لا يقدر على الوفاء بالدين ، فضلاً عن فوائده . بل انقلب إلى ذلك الشره الذى يستغل حاجة الفقير إلى تثير مدخره ، ليستعين به فى حالات المرض والشيخوخة ، وفى سد حاجات عياله ، فيضاعف ثروته الضخمة عن طريق تثير دربهات الفقراء مجتمعة ، ولا يعطيهم سوى النذر الضئيل من الأرباح بل ومن أصل أموالهم . بمختلف طرق النصب التجارية من تأسيس الشركات الوهمية والإفلاس المتصنع وغير ذلك .

هذا هو الوضع الجديد إجمالاً لنظرية القرض الآن . على أنه حتى
الباقى للآن من الوضع القديم ، أعنى القرض للاستهلاك لا للنتاج ،
قد تغيرت ظروفه أيضاً . فقد كانت روح التعاون والتواصل سائدة
بين الناس فى الأزمنة الغابرة ، كما كان للعاطفة الدينية سلطان قوى
على النفوس ، لذلك كان من السهل استشارة هم الأغنياء
والقادرين لمَدِّ يد المساعدة للمعوزين ، إن لم يكن بالفزول لهم عن
نصيب من أموالهم ، فلا أقل من إقراضهم دون تطلب أرباح . وكان
يساعد على إغناء روح التعاون هذه عدم تقدم الانتاج فى ذلك الوقت
إلى الحد الذى يجعله يستنفد جميع رؤوس الأموال ، أياً كان
مقدارها ، كما هو حاصل الآن . فلم يك ثمة أى تنظيم لاستغلال
الادخار بالسهولة الحالية ، وكان المدخرون يكتفون أموالهم تحت
أطباق الثرى ، وبعبارة أخرى لم يكن المقرض بدون فائدة يستهدف
لأية خسارة إذا هو أقرض من يثق بسداده . لذلك كان الفقير
مطمئناً لهذه الحالة الخلقية والاقتصادية التى كانت تضمن له
الحصول على القرض عند الحاجة بدون فائدة .

لكن انظر إلى ما وصل إليه الحال الآن ، تَرَ روح التعاون قد
ضعفت ، وحلت محلها روح الأثرة والأنانية ، والثقة المتبادلة
اضمحلت ، إن لم تكن قد فقدت ، بين الناس ، وحل محلها الشك
والريبة ، وتقلص ظل سلطان العقيدة الدينية على النفوس ، وحل
محل سلطان المادية المحض .

هذا فضلاً عن أن تنظيم الاستغلال بشكله الحالى يجعل معنى كل

قرض بدون فائدة ، خسارة مبالغ كسبها مضمون على مدى مدة القرض دون أى جهد أو عناء يبذله صاحب المال ، فلا غرو إذا رأينا الفقير المحتاج يجأر بالشكوى من حماية انقلبت حرباً عليه ، فلا الغنى الأتاني يقبل أن ينزل له عن جزء من ماله بإقراضه من غير فائدة ، ولا أحكام الشريعة ، كما يفصلها له أصحاب النظرية المتوسعة ، تبيح له أن يقترض بالفائدة ، فيضطر تحت عامل الحاجة الملحة إلى الإقدام على الاقتراض بالفائدة غير عابئ بما فى ذلك من حرمة يعتقدونها . ولا يخفى ما يودى إليه ذلك من تنمية روح الاستهتار بما يظن أنه من أحكام الشريعة ، بما فيه من عنت ظاهر .

وإذا كان بعض الفقهاء فى العصور السالفة التى لم تكن الأحوال الخلقية والاجتماعية قد تطورت فيها إلى ما هو حاصل الآن ، قد أحسوا مع ذلك أمام جشع بعض النفوس فى زمانهم بالحاجة إلى أن يحتالوا على تجويز القرض بالفائدة بمختلف الحيل التى ذكر ابن القيم بعضها ، وذلك لكى يسهلوا للفقراء الحصول على ما هم فى حاجة إليه من القرض ، فإذا بصنع فقهاؤنا فى عصرنا المادى الصرف !!

(انتهى النص المنقول عن المصدر المشار إليه فى أوله) .^(١)

(١) راجع كتاب بحوث فى الربا للمؤلف - (مقال للأستاذ إبراهيم ذكى الدين بدوى) .

يخلص من هذه الأقوال :

١ - أن شعور بعض المجتهدين بحاجة الناس إلى التيسير عليهم في المعاملات قد حمل هذا البعض على أن يبعث نظرية التحديد ، وأن يطبقها على صور مستحدثة ، وأخصها قرض الانتاج بفائدة مشروطة سلفاً .

٢ - وان الأوضاع الاقتصادية تغيرت ، فأصبح المقرض هو الثرى القوى ، والمقرض هو الفقير الضعيف ، ومن ثم وجبت حماية المقرض الضعيف من جشع المقرض الغنى ... وسبيل ذلك هى تنظيم فائدة قرض الانتاج وإجازة تحديد الفائدة ، على هذا النوع من القروض ، حماية لحقوق أصحابها .

٣ - وأن الفقراء هم الذين يجأرون بالشكوى من النظرية المتوسعة فى التحريم ، لأنها تحرمهم من قرض الاستهلاك ، بعد أن نصب معين الوفاء وانعدمت المروءة ، كما تحرمهم من ضمان الثمرة التى تعود عليهم من قرض الانتاج بفائدة مشروطة سلفاً لصالحهم ...

ومفهوم هذا القول أن فى تنظيم الفائدة بوجه عام تخفيفاً على الفقراء فى عصرنا هذا ، بعد أن تغيرت الأوضاع الاقتصادية على نحو ما تقدم بيانه .

وفما تقدم من أقوال الباحث الفاضل ^(١) عرض لطائفة من الآراء ، وليس حتماً أن تكون متفقة مع الرأي الذى انتهى إليه . . . إلا أن التلخيص الذى جاء فى آخر البحث ذاته ، يدلنا على ما إذا كان الباحث قد تأثر بالحجج التى ساقها الداعون إلى التحديد ، وبخاصة فى شأن القرض بالفائدة المحددة سلفاً ، وهو من أهم صور المعاملات الربوية وأكثرها ايغالاً فى أسس النشاط الاقتصادى الحديث . قال الباحث : (ثم نقول فى القرض مع النفع المشروط أنه لم يثبت فيه حديث صحيح ، ولا يصح قياسه على ربا الجاهلية ، إذ الزيادة فى هذا كانت عند حلول الأجل ، وفى القرض بفائدة عند ابتداء العقد . . . وفى الأولى ظلم للمدين ، لأنه يضطر إلى قبولها فى وقت السداد حيث لا يقدر عليه ، ويخشى المطالبة والحبس فلا يستطيع أن يراعى فى مقدارها الاعتدال والتناسب مع طاقته المالية ومقدرته على الدفع . وإذا كان هذا حاله فى الأجل الأول للمدين ، مجرداً من الزيادة ، فكيف يكون حاله فى الأجل الثانى والثالث حين يطالب به مع الزيادة فيضطر إلى قبول زيادة أفدح من الأولى حتى يبلغ الدين أضعافاً من أصله ؟! والزيادة فى كل ذلك لتأخير الدين ، أى للنسيئة ، أما الزيادة عند أول العقد فهى فى مقابل الانتفاع بالقرض مدة معينة ، ولا إكراه فيها ، فيستطيع المقرض مراعاة أن تكون معتدلة متفقة مع مقدرته على الوفاء . كذلك لا يقاس القرض مع النفع المشروط على البيع ، لأن حقيقتها

(١) المرجع السابق

مختلفة، وحتى لو سلمنا بصحة القياس، فإنه بتغير الأزمان، قد تغيرت نظرية القرض، إذ لم يعد الدين كما كان عند المدين عقيماً غير منتج، بل أصبح يغفل أرباحاً طائلة. ومن العدل أن يُبيح للدائن أخذ نصيب منها، كما أن الحالة الخلقية والدينية والاقتصادية قد تغيرت، بما يجعل من العسير على الفقير المحتاج إلى القرض للاستهلاك، أو للعمل والكسب، أن يحصل عليه إلا بفائدة. وقد حمل ذلك الفقهاء السابقين على ابتكار الحيل للهرب من قسوة القول بتحريمه، في زمن لم يكن التطور في نظرية القرض بفائدة قد وصل إلى قسط يسير مما وصل إليه الآن) انتهى النص.

هذا نموذج من أقوال الداعين إلى الأخذ بنظرية التحديد، ومن ثم إباحة القرض بالفائدة إن كانت مشروطة سلفاً، على نحو ما هو سائد في الغرب، بنصوص تشريعية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

وأهم ما في الرأي الخاص الذي أبداه الباحث الفاضل^(١)، استناداً إلى أقوال من ضاق بنظرية التوسع في التحريم، ما يلي:

١ - لم يثبت تحريم القرض مع النفع بمحدث صريح، ولا يصح قياسه على ربا الجاهلية.

٢ - تجب التفرقة بين الربا الذي يحل عند حلول أجل فيرهق المدين، وبتكرار التأجيل يزداد إرهاقه... وبين الفائدة المشروطة

(١) سبق الإشارة إليه.

سلفاً بعلم المقرض ، وفي وسعه مراعاة اعتدالها بحيث تكون متفقة مع قدرته على الوفاء .

٣ - لا يقاس القرض مع النفع المشروط على البيع ، لأن حقيقة كل منها تختلف عن الأخرى ، وحتى مع القياس - إذا سلمنا بصحته كمصدر للتشريع في هذه الحالة بخصوصها ، أو من حيث المبدأ - لوجب أن نراعى تغير الزمان ، وتطور نظرية القرض . فلم يعد الدين عقياً غير منتج كما كان في الماضي ، وإنما أصبح الدين أو القرض منتجاً للربح الوفير ، مما يبرر اجتزاء بعض الربح للمقرض . هذا عن قرض الانتاج . أما عن قرض الاستهلاك فإن الزمان قد تغير أيضاً بحيث أصبح الفقير المعوز معرضاً لأشد صور الاستغلال الربوى أن لم تسعفه بنظام مخفف أساسه إباحة الفائدة المعتدلة على قرض الاستهلاك . وإذا كان المتقدمون من الفقهاء قد اضطروا إلى ابتكار الحيل للتهرب من قسوة القول بالتحريم . . . فكيف بنا الآن ، مع أن نظرية القرض بالفائدة لم تكن في زمن المتقدمين قد وصلت إلى قسط يسير مما قد وصلت إليه الآن ؟ . وإلى هنا ، يتضح بجلاء أن نجاح المدنية المادية للغرب ، خلال القرنين الأخيرين ، قد حملت البعض على الظن بأن كل نظام مستحدث في ظل هذه المدنية ، لابد وأن يكون لازماً لتحقيق هذا النجاح ، وأنه من شأن الغيرة على دين الله ألاّ تلصق به شبهة تعويق النشاط الاقتصادي . وما دام الغرب قد نجح بسرعة فائقة وأثرى وساد على البحار والأمصار ، فلا بد أن تكون وسائله في تدبير شئون المعاش

هى وسائل صالحة، ومنها تنظيم المعاملات بالفائدة الثابتة سلفاً .
ومن حيث أنه فى أقوال بعض من تقدم من أئمة المجتهدين - من زمن
ابن عباس - جماعات تخرجت من التوسع فى التحريم فما علينا إلا
أن نساند نظرية التحديد، وأن نخرج من مجال التحريم ما يبدو
صالحاً للعصر الحاضر من المعاملات، بالقياس على نجاح الغرب فى
أساليبه الاقتصادية .

ولست أرتاب فى مكانة الدعاة إلى النظريات الثلاث، ولا فى
صدق نية كل منهم عند بحثه عن حل لمشكلة عسيرة مزمنة .

ولكنى أقول : لو أن دراسة الأوضاع الاقتصادية الحديثة لقيت
من العناية بعض الذى صرفناه فى الجدل حول النصوص وحدها،
لما اتسعت شقة الخلاف الآن - من جديد - بين دعاة النظريات
الثلاث .

ومن العسير إلقاء اللوم على فرد أو على طائفة، وإنما يتعين توجيه
النقد الشديد إلى هذه القطيعة التى تكاد تكون تامة، بين الأساتذة
المتفرغين لدراسة الأوضاع الاقتصادية الحديثة، وبين علماء الدين
المتفرغين لدراسة الفقه المنقول . وكان الأولى أن نصب جملة فروع
المعرفة فى وعاء واحد، لعل الحق يتضح، وإنه لبسييل الظهور إن
شاء الله رب العالمين .

أما عن الأقوال التى قدمتها ملخصة، فأرى لزماً أن أشير إليها
فى إيجاز - حسب ترتيب ورودها - قبل أن أنتقل بالحديث إلى
معالجة قضية الربا ومكانته من البناء الاقتصادي، علاجاً موضوعياً

يقل فيه التأثير بالنصوص والمجدل حول كل من الصياغة والرواية . ولا أريد التقليل من شأن الصياغة والرواية - معاذ الله - بل أريد أن أنبّه إلى بعض نتائج التخصص ، حين ينقطع كل باحث لناحية أو زاوية يتعمق فيها ، وقد يصل به بحثه إلى نتائج هو أول من ينكرها ، لو أن بحثه اتصل بدراسات أخرى متخصصة .

أما الثروة التي تلقيناها عن السلف الصالح فأساس قوى لحضارتنا الفكرية ، وإنما يكون تقديرها والانتفاع بها أقرب وأجدى . . . إذا نحن تابعنا تطور الفكر الانساني ، وتغير الظروف بشرط ألا تنفرد طائفة متخصصة بالحكم على جملة زوايا مشكلة معقدة كمشكلة الربا .

وفيا يلي موجز على ما تقدم من شبهات ، وسأكتفي ببيان وجهة نظري ، مع إرجاء السند إلى ما يلي ذلك من عرض موضوعي ، تجنباً للتكرار .

١ - القول بأن التحديد تفرضه الحاجة إلى التيسير .

أقول : لا ، لأنه ليس في نظام الفائدة أى تيسير ، وقد ارتفعت الشكوى في الغرب من نظام الفائدة ، وهاجمه علماء متخصصون في الفلسفة والاجتماع والاقتصاد ، ولآرائهم وزن كبير ، وذلك في البلاد الرأسمالية ، فضلاً عن الجمهوريات الاشتراكية التي سبقت إلى إلغاء المعاملات بالفائدة ، وإن كانت قد أبقت عليها في بعض المعاملات الدولية ، لأسباب لا محل لذكرها الآن .

وعلى أية حال ، ليس في الرأسمالية ولا في الاشتراكية أية فلسفة خاصة تفوق نظرة الإسلام إلى الأمور الانسانية ، وانما سنشير إلى تجارب الغرب والشرق لمجرد التدليل على سوء المآل ، بعد تطبيق المعاملات بالفائدة المعترف بها قانوناً ، خلال القرنين الأخيرين . وسيتضح من التجارب التي مرت بها البلاد التي أخذت بنظام الفائدة ، أن ليس في هذا النظام أى تيسير ولا ضمان .

٢ - القول بأن الأوضاع تغيرت ، وأصبح الفقير هو المقرض ، ومن ثم فإنه ، لضعفه ، جدير بالحماية من جشع المقرض الغنى .

أقول : هذه دعاية الرأسمالية حين تأثرت بتعاليم اليهود ... فقد حرمت البلاد الصناعية القديمة (وبخاصة في القارة الأوروبية) على رعاياها من اليهود الاشتغال بالتجارة والصناعة - خلال القرون الوسطى - واضطهدتهم أشد الاضطهاد (باستثناء إنجلترا) ومن ثم فقد نشطوا إلى تنظيم المعاملات الربوية وحذقوها . ولأسلافهم فيها تاريخ طويل .

وأمكن لليهود أن يتحكموا في الاقتصاد كله ، لمجرد تخصيصهم في حركة المال السائل ، وأهم أداة لهذا التحكم ... نظام الفائدة .

تأثرت الرأسمالية إذن بدعاية اليهود ، ورأت فيما يدعون اليه مصلحة ظاهرة (ومن أهمها استنزاف موارد الشرق إبان الثورة الصناعية) وتورط علماء الغرب من غير اليهود في الايمان بقولهم ، ومن ثم في تبريره والدفاع عنه .

ولكن الباطل يزول . وقد أخذ في الزوال بالفعل .

وسنورد أقوال الثقة في هذا الأمر . وإنما يعني الآن أن نقرر بأنه غير صحيح ما قيل من أن نظام الفائدة يحمى المقرض الصغير الضعيف من جبروت المقرض الغنى المقتدر ، فهذه مجرد دعاية يهودية تجوز على البعض .

٣ - القول بأن الفقير هو الذى يجأ بالشكوى ، وأن التوسع في التحريم قد فوت عليه كفالة فائدة القرض المنتج لصالحه ، كما حرمه من الحصول على قرض الاستهلاك بشروط ميسرة مما يدفعه إلى الالتجاء للمرابين .

أقول : هذه شبهة ظاهرة الفساد ، وبحسبنا أن نلاحظ ما فيها من خلط بين الأسباب والنتائج : الفقير يجأ بالشكوى لأنه محروم : هذه قضية مستقلة تحتل الصدق . وفي تاريخ الانسان وظلمه لأخيه ما يؤيدها في كثير من العصور ، بل من عهد قابيل ، إذ ظلم أخاه من أجل متاع زائل . . . وكل هذا صحيح .

ولكن القول بأن رفع الظلم عن الفقير - استجابة لشكواه - إنما يكون بإباحة المعاملة بالفائدة . . قضية أخرى ، وسنوضح أنه لا صلة بين المشككتين ، إلا صلة واحدة هي أن إباحة الفائدة تزيد الظلم أضعافاً .

هذه عن خلاصة الحجج الموضوعية التي انتهى إليها الباحث

الفاضل^(١) فيما تقدم بيانه .

أما الرأى الذى انتهى اليه ، وقد أوردنا بعضه فيما تقدم ، فقد أثار أموراً ثلاثة ، يبينها :

١ - لم يثبت تحريم القرض مع النفع بمحدث صحيح ، ولا يصح قياسه على ربا الجاهلية . ورداً على هذا الرأى الواضح المحدد ، أقرر ما يلى :

إذا كان حقاً ما يقال من أن القرض مع النفع لم يحرم بمحدث صحيح . فهل من الأحاديث ما أجازته ؟ وإذا قيل بأن الأصل فى المعاملات هو الإباحة ما لم يرد نص ، فهل نريد من السنة أو من كتاب الله أن يتعرضوا لشقى الجزئيات والصور ؟ وهل هذا ممكن ، عقلاً ، فى شريعة استهدفت الخير للناس كافة فى كل زمان وفى كل مكان ، أم أنها تحدد الخطوط العريضة وتقرر المبادئ الكلية ، وفى ضوء هذه المبادئ يكون الاجتهاد ؟

لا يمكن التسليم بأن عدم ورود النص الخاص القطعى الثبوت شرط لازم لتقرير الحكم ، وهذه مسألة أولية ما كان ينبغى إغفالها ، وإلا لاقتصر التحريم على ما ذكر بالذات ، أو كانت له صورة معروفة لعهد الزول . وهذا قول مردود ، ونعتقد أن لا خلاف فيه .

على أن منطق الحجة التى يقول بها الباحث ، يستوقف النظر ؟

(١) الاشارة إلى مقال فضيلة الأستاذ ابراهيم زكى الدين بدوى .

فلنرجع إلى هذه العبارة (القرض مع النفع) ولنتساءل عن طبيعة هذا القرض ، وما هي ؟ ..

وهل يوجد قرض بنفع ، وقرض بغير نفع ؟

أولست المنفعة هي الخصيصة التي تدعو الانسان إلى حيازة الشيء أو إلى الدخول في معاملة بعينها ؟ .

لا أريد الإفاضة ، ولكنى ألاحظ أنه لا وجود لهذه التفرقة : (قرض مع النفع) و (قرض بدون نفع) وإذا قيل : بأن المقصود هو القرض المنتج ، تمييزاً له عن قرض الاستهلاك ، فإن اعتراضى يظل قائماً . لأن قرض الاستهلاك يجلب المنفعة ، وقد يكون ألزم من قرض الانتاج . ولا يصح في الفهم إطلاقاً التمييز بين قرض وآخر على أساس أن أحدهما يجلب المنفعة أو ينتج . . . لأن من المفروض أن كل قرض يجلب المنفعة وينتج . وكل من المنفعة والانتاج من المفاهيم الاقتصادية التي تدق على هذا التسامح في التعبير .

فإن قيل : بأن المقصود هو القرض الذي يعقد بقصد التوظيف وتحقيق إضافة رأسمالية تسمى بالربح . فإننا نتقل إلى مجال آخر أحكمت الشريعة الإسلامية تنظيمه ، وهو مجال المشاركة . ففي عقد الشركة يقدم كل شريك مالاً أو عملاً ، وقد يجتمعان للفرد الواحد من الشركاء ، وما دامت الشركة مشروعة فلماذا تتجنبها ونفحم نوعاً من القروض المثمرة للربح في مجال يشوبه التحريم ، بدعوى غياب النص ؟

٢ - التفرقة بين الربا الذى يستحق عند حلول الأجل ، وبين الفائدة المشروطة سلفاً عند عقد القرض ، والقول بأن المدين - فى الحالة الأخيرة - يكون فى مركز يسمح له بمراعاة اعتدال سعر الفائدة ، ومن ثم يتفق على الالتزام بدفع فائدة لا تخرج عن حدود طاقته .

وهذا قول بالغ العجب !

إن أسلوب الوفاء بالزيادة الربوية (وهى الفائدة) وتوقيت الوفاء بهذه الزيادة ، لا يغيران من طبيعة الربا . فهو زيادة على الأصل ، فى جميع الحالات دون مبرر مشروع لهذه الزيادة من جهد أو من مشقة . أما القول بأن المدين الذى يتعاقد على الدين بفائدة مشروطة سلفاً يكون فى مركز يسمح له بمراعاة الاعتدال فى السعر بحيث لا يجاوز طاقته ...

فهو قول مردود على أساس مشهور من فنون الربا .

ذلك أن سعر الفائدة لا يحدده المقرض ، كما لا يحدده المقرض ، وإنما تحدده سوق رأس المال المؤسسة على هذا النوع من المعاملات .

وفى الاقتصاد الغربى دراسات مطولة تدور حول العوامل التى تحدد سعر الفائدة . ولا نزاع فى أن المقرض (وهو محتاج) يتقدم إلى الجهة التى تقرضه ، شاهراً قلمه ، لا أكثر ولا أقل ، لكى يوقع على ما يملئ عليه من شروط فرضتها سوق رأس المال . هذا ، إذا تم عقد القرض فى ظروف عادية ، وفى ظل القانون

الوضعى الذى يجيز المعاملة بالفوائد ، التى تسمى « قانونية » أما فى الحالات الخاصة ، التى تتم من وراء الستار وبطرق ملتوية ، فإن مركز المقرض يكون أشد ضنكاً وأكثر إيلاًماً . لأن المقرض يفرض الشروط المصحفة فوق إجحاف المعدل السائد فى السوق ، ويفتن فى ستر فعلته ، بأساليب لا مجال لذكرها كلها ، وإن كان بعضها مشهوراً . . . ومن ذلك مثلاً أن يوقع المقرض على عشر كمبيالات ويعترف بأنه قبض القيمة الحالية لكل منها . . . والحال أنه قبض قيمة سبع منها أو تسع فقط ، حسب درجة إلحاح حاجته . ومن أساليب المقرض أيضاً لإنتقال سعر الفائدة فى غفلة من القانون الوضعى ، أن يلتزم المقرض بدفع رسوم الخبرة لدراسة مركزه المالى حتى يطمئن المقرض إلى ملائمة المقرض (هكذا فى سوق رأس المال) ، وقد تصل رسوم دراسة القرض أضعافاً مضاعفة من الفائدة السائدة فى السوق ، أو من الفائدة القانونية .

ومن الحقائق المسلمة ، أنه ، فى ظل النظام الربوى ، يزداد العبء الملقى على كاهل المقرض بثلاثة عوامل رئيسية ، بينها :

(أ) الضمان الذى يقدمه ، فكلما قلت ثروته قل ضمانه وزاد سعر الفائدة الحقيقية .

(ب) حجم القرض ، فكلما قل حجم الدين أو المبلغ المتعاقد عليه زاد سعر الفائدة (وسنرى عجباً بعد قليل فى قوانين بعض الولايات الأمريكية فى زمننا هذا)

(ج) مدة القرض ، اذ الفائدة على القروض القصيرة الأجل أيسر من نظيرتها على الديون الطويلة الأجل ، هذا في حالات . وفي أخرى ، ينعكس الوضع وتقل الفائدة إذا طالت مدة القرض . . . وفي هذا تفصيل في الدراسة الاقتصادية لسوق رأس المال ، ولا يتسع المجال الآن لمزيد من التفصيل .

على أن سعر الفائدة يتأثر أيضاً بندرة رأس المال ، بمعنى أنه كلما اشتدت الندرة النسبية للمدخرات المتاحة للتوظيف . . . ارتفع سعر الفائدة .

وليس للمقرض حول ولا قوة بأى من هذه العوامل . ولم نذكر عن ضعف المقرض حيال المقرض إلا إشارة عابرة ، مراعاة لوفرة المشكلات المثارة .

ومن أهم ما تركناه : عامل الثقة ، فبقدر ما يثق المقرض في مدينه الملتزم أو عميله (الذى سيتحول إلى مدين مقرض بعد الاتفاق) تكون شروط القرض ميسرة ، ويكون سعر الفائدة معتدلاً . وأرى من واجبي أن أنبه إلى أن هذه المسألة بالذات قد لعبت في القرن التاسع عشر دوراً خطيراً نتج عنه السوء لكل من المقرض والمقرض . وسأخذ من التاريخ الاقتصادى الحديث لمحة خاطفة بقصد التوجيه إلى مزيد من البحث في عامل الثقة الذى تركناه لخطورته ووفرة مادته ، لا لقلّة شأنه .

نجاح الصناعات الثقيلة في الغرب كان من أهم العوامل لاستعمار الشرق .

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نجحت الصناعات الثقيلة في الجزر البريطانية وفي القارة الأوربية . وتدفقت منتجاتها إلى الشرق العربي . وأدرك المنتج الغربي أن هذا النوع من السلع كبير القيمة بحيث لا يتسنى للمشتري أن يدفع ثمنه عاجلاً من محصول كل عام ، على نحو ما كانت عليه الحال في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حين كانت الصناعات الرائجة هي صناعات السلع الاستهلاكية (كالمنسوجات مثلاً) . ومن ثم فقد رأى الغرب الذي سبق إلى الصناعات كلها أن الشرق لابد له أن يكون مديناً بأثمان المنتجات ، ولآجال طويلة . وبغير ذلك لا تزايد حجوم المشروعات عند الغرب ، ولا تنتفع صناعاته بقانون تناقص التكاليف النسبية .

ومن حيث أن الغرب لا يثق في الدولة العثمانية ولا في ولاياتها ، ومن حيث أنه لا يضمخ خيراً للأمم الإسلامية بوجه عام ولا يثق فيها ، فقد اشتدت فيه النزعة إلى العدول عن حرية التجارة إلى اعتناق مبدأ الحماية ، ومعنى ذلك أن يصل إلى أرض غير أرضه ، ويتدخل في شؤونها ، لضمان قدرتها على دفع ثمن ما تستورده من سلع تقسط أثمانها على سنوات أو على عشرات السنين بالفوائد ، طبقاً لفلسفة العصر . . . وهكذا تطورت النزعة الاستعمارية ، وأخذت اتجاهاً شديد الحدة ابتداء من أواسط القرن التاسع عشر . . .

ولا نقول بأن هذا هو الدافع الوحيد للاستعمار (اذ غيره كثير)
ولكننا نقول بأنه واحد من أهم الدوافع .

ومحل النظر هنا ، هو أن المنتج المقرض يريد أن يبيع بالأجل وأن
يضمن الأصل والفائدة وهو لا يثق بالمدين .. فما هو الحل ؟

الحل ، هو التدخل بالدسياسة والرشوة ، وأخيراً بالاحتلال
العسكري . لأن الثقة منعدمة ... وإنما نسوق هذا المثل - وإن كان
أقرب إلى الاستطراد - لمجرد التنبيه إلى أن المذاهب الاقتصادية
الغربية التي بهرت أنظار الباحثين ، لا نصيب لها من أصل فلسفي
ثابت ، ولا هي تشكل مدنية رفيعة الشأن . وإنما هي جملة محاولات
تحريكها نزعة جائرة إلى طلب الإنراء السريع ، ولو على الهياكل
البشرية لأقوام أبرياء ، كل جريرتهم أنهم تخلفوا عن ركب الحضارة
المادية ، لبعض الوقت ، وعليه ، فما هو دور النظام الربوى في ازدهار
الغرب وتقدمه ؟ فليس النظام الربوى إذن ، هو الذى دفع عجلة
الانتاج عند الغرب . وليس النظام الربوى هو الذى رفع مستوى
المعيشة عند الغرب . وإنما مرد هذا النعيم المادى الخالص المؤقت ،
قد كان إلى عوامل أخرى ، منها السبق إلى العلوم والفنون في عصر
الطاقة ، طاقة البخار ثم الكهرباء ، وأخيراً الاحتراق الداخلى .
خلال القرن التاسع عشر ... أما الطاقة النووية فقد تأخر الكشف
عنها بعض الوقت .

لكن ما الذى كسبه الغرب من إقراض الشرق واملاء شروطه
قسراً لفترة من الزمن - واحتلال أرضه بسبب انعدام الثقة وإسرافه

في تكبيل المدين ضماناً للأصل والفائدة ؟

هذه هي قائمة الحساب :

(أ) عدل الفكر الاقتصادي عن « حرية التجارة » إلى « الحماية » ففتح باب الحروب المتوالية ومن العسير التنبؤ بإقفاله نهائياً .

(ب) نظم الغرب مستويات المعيشة عنده على أساس الريح الفاحش المضمون ، ولا رأى في هذا للمدين إطلاقاً ، عند التعاقد ولا عند احتلال أرضه ، لضمان الوفاء بأصل الدين والفائدة ، وحين أفاق الشرق من سبات طويل وهب لاسترداد حقوقه . . . وجد الغرب أن مركزه عسير ، فلا هو بقادر على مقاومة العوامل الطبيعية وقد تحركت ، ولا هو بمقتنع بوجاهة قضيته حتى يثير من أجلها حرباً صليبية . . . وبالتالي عجز عن النزول السريع عن مستويات من العيش الرغيد ، ألفها بضعة أجيال ، تفرد خلالها بخيرات شعوب غافلة . . . هي التي احتكر مواردها وأغرقها ، عمداً ، في المعاملات الربوية سواء أكانت بالنقد أم بتسويق السلع . . . وسواء أكانت بالاحتكار أم بالامتياز أم بالقروض الربوية للأفراد والحكومات .

(ج) عاد الغرب الآن يتلمس المخرج ويعيد النظر في فلسفة اقتصاده ، ونظرياته ، وتواجد فيه من يتساءل عن أصل القروض وأصل الفوائد وضرورتها ، ومركز المصارف وجواز ملكيتها للأفراد والهيئات الخاصة . . إلى آخر ما سنعرض له في موضعه من هذا

البحث أو من غيره (فالموضوع بالغ الشعب) ، وخرج الغرب من الحرب الأخيرة (٤٥/٣٩) أقل إيماناً بما نادى به من مبادئ وأنظمة وأساليب لمعاملات بعض الأفراد لبعض ، وفيما بين الشعوب أيضاً . . . وأخذ الفكر الغربي يهتز ويتلمس نوراً جديداً يخرج منه من ظلام مخيف .

وأما أعجل بهذه الإشارة للتذكيرة بأنه من خطأ الرأي أن نتلمس أسباب التيسير في المعاملات بإجهااد النصوص عندنا أو بإحياء خلافات في الرأي قديمة .

إن ميزة أحكام الاسلام أن إطاراً واحداً ينتظمها ويحيط بها احاطة السوار بالمعصم ، وهذا الاطار هو التراحم فيما بين الناس ، وتقوى الله فعلا وعملا ، لا بالقول والمراعاة .

وحين يصح عندنا النظر - وهو صحيح من غير شك - تهون بعد ذلك خلافات الرأي حول صور المعاملات وتفاوت الروايات . . . إذ الجوهر في المعاملات هو اعطاء كل ذي حق حقه ، ورحمة الضعيف واقتضاء حق المجتمع من المقتدر . هذا هو جوهر أحكام الأموال في الاسلام ، ومنه نتخذ المعايير عند الاجتهاد بالقول في غياب النص .

ومن أول ما يتعين الحذر منه ، ذلك الوهم الذي سيطر على البعض زمناً ، حين ظن بأن كل ما في الغرب صواب ، أو ضرورة اقتضاها التطور الناجح لاقتصادياته . . .

هذا خطر فكري نريد أن ندفعه بالحجة الدامغة ، لا من رأى

خاص ، ولا من أقوال الفقهاء المحافظين (مع إجلال رأيهم) وإنما من اعترافات الغرب ذاته وتجاربه ، وقد ضاق بمساوى نظامه الربوى ، وكاد يعلن إفلاس نظامه .

وهكذا يتضح بأكثر من دليل نظرى وعملى ، أن القول بتمكين المدين من تقدير شروط القرض حال عقده بفائدة مشروطة سلفاً ، هو قول لا يمليه إلا الإسراف فى حسن الظن بالفلسفة الاقتصادية للغرب خلال القرن التاسع عشر ، حين كان الكتاب والعلماء والشعراء من الفرغبة يروجون لمبادئهم المستحدثة مع الثورة الصناعية ...

وما هى مبادئ ، وإنما هى سياسات مؤقتة تقلبها المصلحة الباغية العاجلة وقد ثبت أنها الى زوال .

٣ - وجود اختلاف ، بين كل من القرض مع النفع وبين عقد البيع ، وتغير الزمان واختلاف الظروف وتطور نظرية القرض بنوعيه (قرض الانتاج وقرض الاستهلاك) .

رتب الباحث الفاضل على هذه الظاهرة تعذر قياس القروض ذى الفائدة الثابتة سلفاً على عقد البيع .

وردى على هذه الأقوال يتلخص فى أنه :

(أ) إذا سلمنا جدلاً بأن طبيعة عقد القرض الربوى ، فى جميع

صوره ، تختلف عن طبيعة عقد البيع في جميع صورته أيضا . . . لما غير هذا التسليم من حكم الربا في كثير أو قليل . لأن القول بتحريم الربا قياساً على بعض العقود الفاسدة ، إنما ينصرف الى عدد محدود من المعاملات التي يلحقها التحريم بالنص وبالقياس . ولكن مبدأ التحريم يجد علته الاقتصادية في أسباب أخرى ، بخلاف مجرد التوافق أو التشابه بين المعاملة الربوية وبين بعض عقود البيع . أما علة التحريم التي تمتد الى كل صور المعاملات الربوية فتتضح من تحديد مركز الربا في البناء الاقتصادي . ومن ثم ، فإننا لا نستند في القول بالتحريم إلى توافق طبيعة العقدين .

(ب) إذا كان تفسير الزمان والمكان قد أدى الى تطوير نظرية القرض ، فإن هذا التطور قد انتهى الى تقرير عدد من الأساليب المناسبة لكل دور من أدوار التطور ، ولكن التجربة أثبتت أن لكل أسلوب استحدثته الغرب مساوى ، ومن ثم عدل عنه . ولا يزال الجدل محتدماً حول تبرير الفائدة ، وبعض هذا الجدل لا ينصب على الفائدة كثمرة لأصل . . . وإنما يتعدى ذلك الى مناقشة الأصل ذاته . وبعبارة أخرى : إن هذا التطور الفكرى الذى ظهر مع الثورة الصناعية قد أدى الى مناقشة الملكية وإنكار حق الفرد في الإستثمار بملكية أدوات الإنتاج ، وهى رأس المال فى أهم صورته ، وما كانت هذه الثورة الفكرية على ملكية رأس المال إلا أثراً من آثار تفاوت الثروات والدخول ، فى ظل النظام الاقتصادى السائد عندئذ فى البلاد المتقدمة صناعياً وقد أخذ معظمها بالمغالاة فيما يعرف

بحرية الفرد، وحق تلك الأصل، والثمرة المحددة أو المبالغ فيها... ومن الثمرات في ظل الرأسمالية ما هو ربا صريح.

أما معاملات القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد قاما أساساً على الاعتراف بالفائدة من حيث المبدأ، واضطرب تقدير الحد المناسب منها، ولا يزال الخلاف مستمرا... ومن ثم فإن مجرد تغير الزمان والمكان وما حدث نتيجة لذلك من تطور في نظرية القرض، لا يبرران جنوح المسلمين الى تلمس الرخص بقصد الملاءمة بين أحكام دينهم وبين الأوضاع المتطورة لأن هذه الأوضاع لم تستقر، وهي قطعاً لم تنجح. ودليل ذلك ظهور المذاهب الاقتصادية التي تهاجم كلا من الأصل والفائدة على ما سنشير اليه بشئ من التفصيل.

(ج) التفرقة بين قرض الإنتاج وقرض الاستهلاك، سبقت الإشارة اليها، كما سبق الرد على اجازة الفائدة على كل منها.

وبحسبنا ما تقدم من قول على الجدل حول النصوص، وما أدى اليه من خلاف في الرأي... بحيث لم تتقدم المشكلة خطوة نحو الحل. ولعلها تأخرت.

كيف تبحث مشكلة الربا؟

تقدم القول بأن دراسة هذه المشكلة على أساس متابعة الجدل التقليدي، لا تؤدي الى ترجيح إحدى النظريات الثلاث.

ولذلك رأينا أن نبحث موضع الربا من البناء الاقتصادي، دون

التعرض - إلا بالقدر الضروري - للنصوص المروية .

ومن أُلزم الأمور أن نعرف طرفاً يسيراً عن البناء الاقتصادي والثروة والآراء المتباينة حول هذا كله عند الغرب الذى يطبق نظام القرض بالفائدة سواء أكان القرض للإنتاج أم للإستهلاك .

كما يتعين علينا أيضاً أن ننظر إلى جملة أحكام الإسلام فى شأن المال ، وما ينتظمها من فلسفة لا يزال البحث يدور حول استجلائها وتبسيطها .

وفى ضوء آراء الغرب من ناحية (وهى دائمة التطور دون الوصول إلى نموذج مثالى للحياة الاقتصادية) والآراء التى يمكن للباحث أن يستشفها من النموذج الإسلامى للمعاملات سيتضح ما إذا كانت الفائدة الثابتة تحقق (أو لا تحقق) رفاهة الإنسان فى حياته الأولى . . . والرفاهية هى الهدف الأخير من السعى لتدبير المعاش .

كما سيتضح إن كان النظام الاقتصادى كما وصفه الإسلام (مبرراً من الربا) صالحاً فى كل زمان ومكان ، رغم تطور الإنتاج وتعدد المعاملات .

وفى ما يلى فقرات تصف ما تقدم من المفاهيم ، بالقدر اللازم لجلاء حكمة تحريم الربا ، فى جميع صورته .

ماهية الاقتصاديات :

ما هى اقتصاديات الإقليم ، وما البناء الاقتصادى ، وما الشبكة الاقتصادية ؟

هذه أسئلة أثارها بعض الاقتصاديين المحدثين وحاولوا الاجابة عنها ، ولا تزال الفكرة التى يخرج بها الباحث من الرجوع إلى مؤلفاتهم ، تجمع بين الغموض والتردد . ولكنها محاولات جديدة بالاهتمام وبالتكرار ، حتى تتضح هذه المفاهيم بالقدر الكافى .

حاول الاستاذ الإيطالى (براشيانى تيرونى) أن يتناول هذا الموضوع فى بعض دراساته عن « مصر » إلا أن الهدف الرئيسى من دراسته كان مجرد البحث فى سيطرة المحصول الرئيسى (القطن) - على الحياة الاقتصادية للمجتمع .

ومن ثم كان ذكر البناء الاقتصادى فى الدراسة الخاصة التى قام بها عارضاً ، ومن زاوية واحدة ، هى زاوية سيطرة محصول القطن على اقتصاد الإقليم المصرى . . . وكذلك الأستاذ (فرانسوا بيرو) F. Perroux أنه قبل المحاولات المبكرة لمعهد الابحاث العلمى الذى كان يرأسه الأستاذ (شارل رست) ، لم يعرف عن البناء الاقتصادى لفرنسا إلا القليل . وحاول الأستاذ (فاجمان) Wagemann فى كتابه عن الاستراتيجية الاقتصادية أن يعرض لكل من البناء الاقتصادى والشبكة الاقتصادية ، وإن كانت الآراء التى أبدائها غير مقنعة عند البعض .

وفى كل من المراجع الإنجليزية ومطبوعات هيئة الأمم المتحدة محاولات قيمة ، ومن ثم فإن هذه الدراسة حديثة نسبياً ، وتتسع لمزيد من الاجتهاد .

ومن جملة ما هو مقبول من الآراء عند أساتذة الاقتصاد ، يمكن

القول بأن البناء الاقتصادي (**Structure Economique**) هو « النسب والصلات التي تميز مجموعة اقتصادية محددة على الزمان والمكان » وهو أقرب إلى الثبات منه إلى الحركة . بمعنى أنه إذا تم بناء الاقتصاد القومي للإقليم المعين على أسس معلومة ، فإن تغييره أو تعديله يقتضى كثيراً من الجهد ، وفترة من الزمن ، وهو مفهوم يميز عن النظام الاقتصادي (**Economic order of system**) لأن الأخير يتألف من جملة الأوضاع الغالبة ، ذات الاتجاه الواحد في اقتصاديات الإقليم المعين لفترة معلومة من الزمن .

أما الشبكة الاقتصادية فهي « مجرى الأحداث الاقتصادية المترابطة ، أو بعبارة أخرى « جملة الأحداث والظواهر الاقتصادية التي تتغير سريعاً ويتكرر ظهورها ، إما على حالها أو معدلة إلى حد ما »

والفرق بين البناء الاقتصادي وبين الشبكة الاقتصادية يكاد ينحصر في سرعة التطوير ، إذ من العسير أن نتصور بناءً اقتصادياً ثابتاً لا يتحول . . . ومن شأن التغيير الإرادي في نوع الأحداث الاقتصادية مع التكرار أن يتغير البناء تدريجياً .

والمقصود (بالنسبة) هو العلاقة بين كل فرع من فروع النشاط الاقتصادي وجملته . وهذه العلاقة ثابتة في المدى القريب ومحتمل تعديلها في المدى البعيد .

أما الأحداث والظواهر التي تتألف منها الشبكة الاقتصادية (**Comjoncture**) فهي تكرار لظاهرة ما بدرجة معينة من الشدة .

أو بدرجات متفاوتة ، حال تكرار وقوع الظواهرات . . . ويجوز - نظرياً على الأقل أن تنقطع ، ومن الناحية العلمية يمكن الحد منها بالتشريع وبالرقابة ، حتى يقل أثرها في سير جملة الأحداث ، كهجرة رأس المال إلى داخل الإقليم أو خارجه .

والفكرة في جملتها حديثة العهد ، وقد يكون بحث الأستاذين (ليزت وهاملتون) أول دراسة للموضوع من الناحية النظرية . أما تطبيقها فقد تأخر كثيراً . ويتلخص هذا التطبيق في تحليل البناء الاقتصادي إلى مفرداته بقصد التعرف عليها ، وعلى ما بينها وبين الشبكة الاقتصادية من تفاعل مستمر وإن كان بطيئاً .

ومن التعاريف القليلة التي تقدمت يتضح أن البناء الاقتصادي هو مجموعة من النسب والصلات فيما بين القطاعات المختلفة للمجتمع . على حين أن الشبكة الاقتصادية هي جملة الأحداث السريعة المتعاقبة ، أو هي مجرى الأحداث الاقتصادية التي تتخذ صوراً شتى ، كالمعاملات وما يحكمها من قرارات يصدرها ولى الأمر ، أو من عرف يقره المجتمع اختياراً .

فكل من البناء الاقتصادي والشبكة الاقتصادية ، إذن ، مفهوم معنوي ، لا يتسنى إدراكه باللمس أو باللمس ، وإنما يمثل قضية فكرية تصح في الفهم ولا تدركها الحواس .

والفرق الجوهرى بين البناء والشبكة - كما قدمنا - أن البناء ثابت مستقر نسبياً ، وإن تحول فني ببطء ، أما مجرى الأحداث فإن

التحكم فيه ميسور ، إما بالاتفاق فيما بين أفراد المجتمع ، أو بقوة
الشرع .

وفما بين مجرى الأحداث الاقتصادية والبناء صلة وثيقة ، تتلخص
في أن البناء لا يتعدل بطريقة سلمية إلا بتتابع آثار الأحداث في
المدى الطويل ، فإذا أردنا تغيير الهيكل العام لاقتصاديات مجتمع
معلوم فإننا نتخذ واحداً من أسلوبين :

أحدهما العنف الذى يقوض البناء من أساسه لكى نقيم على
أنقاضه بناء أكثر ملاءمة للعصر أو للتطور الفكرى ، والأسلوب
الثانى أن نتحكم فى الأحداث الجارية وأن نوجهها حتى تؤتى من
الآثار - تبعاً - ما يحدث التغيير السلمى البطيء ، فى البناء
الاقتصادى .

ولقد كانت النسب والصلات التى تنتظم المجتمعات الغربية فى
أواخر القرن الثامن عشر (عندما ظهرت عوامل الثورة الصناعية)
بالغة السوء وتشيع فيها ظاهرة الظلم البين لجمهور الشعب من أجل
قلة حاکمة أو قلة من أولى الأمر .

وكثيراً ما اصططح الحاکم مع الممول على تسكين عوامل الضيق
والثورة التى كانت تعتلج فى نفوس الجماهير ، ولكن إلى حين ،
وكانت هذه الأوضاع موروثه من القرون الوسطى على نحو ما أشرنا
إليه بإيجاز فى المحاضرة الأولى .

* * *

زادت هذه الظاهرة - ظاهرة الظلم الاجتماعى - حدة مع تقدم القرن التاسع عشر، حين خفت صوت الدين تماماً، بعد المراحل التى مرت بها منازعات الكنيسة مع كل من التجار والصناع، خلال القرون الوسطى، ولم تفلح المسكنات التى عمدت إليها بعض الحكومات، كإصدار قوانين الفقر فى إنجلترا إبان حكم الملكة فكتوريا فى القرن التاسع عشر، وقيام فلسفات خاصة، كفلسفة التعاون (كما عرفه الغرب) من أواخر القرن الثامن عشر - فى نطاق ضيق - ومن الربع الثانى للقرن التاسع عشر، فى بلاد صناعية متعددة، منها إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، والفروج. وكانت هذه المحاولات تهدف إلى الحد من طغيان رأس المال (أصلاً وثمره)، ونشطت أقلام الفلاسفة وأساتذة الاقتصاد، إلى بحث الثروة بكثير من العناية، وكذا الإيراد والفائدة، (وهى الربا المخفف بإجماع القواميس المعتمدة ودائرة المعارف البريطانية ومراجع التاريخ الاقتصادى)

وظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر، وفى خلاله مجموعة من المؤلفات التى تدعو إلى فهم الثروة فهماً صحيحاً. إذ النزاع بين الطبقات عندئذ كان يدور حول الفروق الكبيرة التى كانت تفصل بين الناس، وتمسك أصحاب رؤوس الأموال بحقهم الموروث، فى أموالهم، وما يتفرع على ذلك من اجتناء الثمرة، بصرف النظر عن مفهوم الثمن العادل. وهذا المفهوم المميز (الثمن العادل) كان يخالط قضية الربا من العصور الوسطى، ودعت الكنيسة إلى إحلاله محله

اللائق في المعاملات ، ولكن موقف الكنيسة كان ميثوساً منه ،
لأسباب بيناها بالقدر الكافي في المحاضرة الأولى ...

ومن ثم تجمعت في أوائل القرن التاسع عشر عند المجتمعات
الغربية ظاهرتان :

الأولى : تقدم علمي سريع يحقق الثراء المادى وتجمع الثروات
على صورة غير مسبقة .

الثانية : بداية ثورة فكرية عارمة ، انتظمت الطبقات الكادحة
والشعوب المحرومة من ثمرة هذا التقدم المادى الخالص .

وكان تخفيف المعاملات الربوية إلى نظام الفائدة التى يقرها
القانون ، نوعاً من استمرار صورة قديمة من صور المعاملات الظالمة
التي كانت الكنيسة تحاربها ، ولم يكن أسلوب المعاملة بالفوائد عاملاً
من عوامل التقدم المادى .

وهذه التفرقة جوهرية لما نحن بصدد من بحث ، لأن أخطر
الأخطاء التى يمكن الوقوع فيها هو القول بأن مشروعية الفائدة
وإصدار التشريعات المنظمة لها (خلال القرن التاسع عشر بعد
فصل الدين والاخلاق عن دوائر المال والأعمال) قد كان من
عوامل التقدم الصناعى والتجارى ... أو كان من أسباب تحقيق
الرفاهة الاقتصادية للبلاد المتقدمة في الصناعة ... هذا خطأ
لا يغتفر ، اذ للتقدم أسباب ثابتة . ومن أهمها : التحكم في الطاقة ،
وجمع الطاقة إلى الحديد فيما يعرف بالآلة والأداة الآلية ، وتحسين

وسائل الإنتاج ووفرة المخترعات وتسخيرها لإنتاج مزيد من الطيبات ، وفتح الأسواق وتحسين وسائل المواصلات ، إلى آخر ما هو معروف من عوامل رفع مستوى الكفاية الانتاجية بالعلم والفن وتكرار التجارب والافادة من هذا كله .

ولا تقع المعاملات بالفائدة في نطاق هذه المجموعة المميزة من عوامل التقدم ، بل على العكس من ذلك ، تقع هذه المعاملات في جملة الأحداث الاقتصادية المتكررة الجارية . . . التي تؤتي آثاراً قليلة نسبياً ، وبتراكم هذه الآثار السيئة تزداد الفروق بين النسب والصلات تدريجياً وفي ببطء . . . تلك النسب والصلات التي قلنا بأنها مادة البناء الاقتصادي .

* * *

تأثر الاقتصاد الغربي في أواخر القرن الثامن عشر ، وفي أوائل القرن التاسع عشر بالمبادئ التي نادى بها اقتصادى بريطانى مشهور هو (آدم سميث) (١) ومن أهم ما ذهب اليه هذا الاقتصادى : القول بأن الثروة مفهوم مادى خالص . والقول بأن الاصل فى كل معاملة أن تكون بطبيعتها عادلة وأنه من العسير أن نتصور معاملة لا يخرج منها الطرفان بخير يعود على كل منهما .

(١) أستاذ للمنطق والفلسفة أصدر كتاباً مشهوراً « ثروة الأمم فى سنة ١٧٧٦ » ويعتبر هذا الاستاذ مؤسس المدرسة الفكرية الاقتصادية التي يطلق عليها « المدرسة التقليدية » .

أثبتت التجارب خلال بضع عشرات من السنين التي تلت ظهور آراء (آدم سميث) أن أقواله إما أن تكون نظرية خالصة تصح في كوكب آخر، أو تكون غير صائبة إطلاقاً . وظهر من الكتاب من يعارضه فيما قدم به من رأى حول الثروة والمعاملات وعدالتها التلقائية .

عرض لأراء بعض مفكرى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وتكفى الإشارة هنا إلى بعض آثار الفكر الاقتصادى الذى جاء فى أعقاب (آدم سميث) على الفور، لعدد محدود من مفكرى ذلك العصر . والواقع أن عدداً كبيراً من المفكرين قد أسهموا فى بحث الثروة والمعاملات بحثاً وافياً وكان منهم الفلاسفة وأساتذة الاقتصاد ورجال الحكم والعلم فى وقت معاً . ولكننا سنشير إلى عدد قليل من أصحاب الرأى فى ذلك العصر، الذين دعوا إلى أنظمة أكثر ملاءمة للتطور الذى شهده ، وما ترتب عليه من ازدياد الحالة سوءاً عما كانت عليه قبل توفيق الإنسان إلى تسخير الطاقة ، واختراع الآلة ، وتجميع رؤوس الأموال الكبيرة وعالج كل منهم قضية التفاوت فى الثروة والدخل ، والآثار الاقتصادية والاجتماعية للنهم إلى المال ، وما يترتب عليه من اعتصار الفقير وإضعافه ومن هؤلاء :

(آدم مولر Adam Muller ١٧٧٩ - ١٨٢٩ :

كان لأراء (مولر) السياسية أثرها الواضح على تفكيره الاقتصادى ، فقد قال بأنه لا كيان للفرد بدون الدولة - فى نظر مولر

- إلا لمواجهة حاجة عليا ، وهى تحقيق التعاون المستمر فيما بين أفراد الجيل الواحد . وخلص من ذلك إلى القول بأن الدولة هى التعبير الجماعى لهذا التعاون ، ونظر إليها على أنها كائن طبيعى حى . واستناداً إلى هذا النظر هاجم (مولر) الملكية الفردية المطلقة ، لأنه رأى فى الاعتراف بها إذكاء لنهم الحياة ، وما من سبيل إلى اشباع هذا النهم بأية ثروة مهما عظم شأنها . ومن رأيه ، أن الاعتراف بحق الفرد فى التملك إنما يكون على أساس التسليم بزوله عما يملك للدولة ، إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك .

ولم يعتبر (مولر) « الأرض والعمل ورأس المال » عناصر إنتاج وإنما رأى هذه العناصر على أنها (الطبيعة والانسان والماضى) وأدخل فى الماضى رأس المال المادى والروحى الذى تكون وتجمع ، على نحو يساعد الفرد فيما يباشره من انتاج حاضر . وقد تركت آراؤه أثراً فى النظر إلى الملكية الفردية وحق الدولة على الملك الخاص والتعاون فيما بين أفراد الجيل الواحد ، وتعاون الاجيال .

كما ألقى على المجمع من رأس المال - فى وقت معين - نظرة فاحصة تجعل منه قدراً مادياً وقدراً معنوياً ، وتربط ما بينه وبين تتابع جهود الأجيال فى بناء مقومات الرفاهة الاقتصادية للمجتمع المعين ، وللجنس البشرى بوجه عام .

فردريك لست Frederic List ١٧٨٩ - ١٨٤٦ :

يتفق (لست) مع (مولر) في نقده للمادية الصرفة التي تتسم بها آراء سميث . ولم يكن يميل إلى رأى (آدم سميث) بشأن النشاط الاقتصادى (وقد اتسم بالمادية الخالصة) حين قرر بأن القيمة إنما تكون فى التبادل . . . وقال بأن الفرد قد يمتلك الثروة ، ولكنه مادام لا يملك القدرة على زيادة قوة الإنتاج فيها عما يستهلكه منها ، فإن الثروة تفتى ويعود الفرد فقيراً . ويستطرد إلى القول بأنه لا ينبغى توجيه البحث الاقتصادى إلى الثروة فى حد ذاتها ، كموجود مادى - وإنما يكون توجيه البحث إلى تنمية القوة المنتجة للثروة . وتتأثر هذه القوة بعوامل كثيرة لا تتصل بالانتاج مباشرة ، ومنها الدين المسيحى ، وإلغاء العبودية ، ووراثه العرش ، واختراع الطباعة ، والصحافة ، والبريد ، والنقود ، والمقاييس ، والموازين ، وطرق المواصلات ، وغيرها من العوامل ذات الصبغة القومية العامة .

أدخل (لست) إذن ، كل ما تقدم ذكره ضمن الموارد الفعالة فى القوى الانتاجية ، وهى من انتاج الأجيال السابقة ، أو مما تركته للأجيال المتعاقبة ، ومن ثم فإنها تعد رأس المال الذى تجمع لجيل حاضر بمجهود أجيال سابقة .

وبذلك تحدد الطاقة الانتاجية لجيل حاضر ، بمدى قدرته على الاستفادة مما تركه السلف ، ومدى قدرته أيضاً على الاضافة إلى ما ورثه .

ولم يؤمن بإمكان الوصول إلى حرية التجارة ، ولذلك قرر بأنه يتعين النظر إلى التجارة ، على أساس من واقع الامر ، فالفرد ينشط ويتعامل في نطاق محلي وفي نطاق عالمي ، وتقف الدولة بين الفرد وبين العالم . . . ولذلك يجب أن ننظر إلى الافراد لا كمنتجين ومستهلكين فحسب وإنما كمواطنين تتأثر قدرتهم على الانتاج بمدى التنظيم الاجتماعي والسياسي للدولة التي ينتمون اليها .

ورأى (لست) أن وظيفة علم الاقتصاد هي العمل على تحقيق التقدم الاقتصادي للمجتمع كله (أو للدولة) ، ولذلك . . . من الخطأ فصل الاقتصاد عن السياسة ، إذ لا يجوز للدولة أن تقف مكتوفة الايدي دون حماية القوة الانتاجية الكامنة فيها ، ومن ذلك حماية جماهير الناس بوصفهم من عوامل القوة الانتاجية في المجتمع .
سيسموندى Sismondi ١٧٧٣ - ١٨٤٢ :

كان (سيسموندى) من أنصار (آدم سميث) ، ولكن هذا لم يمنعه من النقد والقول ببعض الآراء التي خالفت ما ذهب إليه سميث ، ومن أهم ما أثاره في هذا الشأن :

ارتيابه في القول بأن (سعى الفرد لتحقيق مصلحته الذاتية يعود على المجتمع كله بالخير) .

كما رفض (سيسموندى) أيضاً : أن ينظر إلى الثروة على أنها مفهوم مادي خالص ، وقال بأنها مفهوم يقاس بمدى ما يحققه من رفاهة انسانية .

وخالف أنصار المذهب التقليدي في نظرهم إلى علم الاقتصاد ،

على أنه علم يستمد قواعده من ظاهرات مادية تثبت صحتها ، و اراد أن يستخلص قواعد الاقتصاد من النتائج التي سجلها التاريخ . ولهذا يعتبر من أنصار المذهب التاريخي .

وقد استوقف نظره ، ما خالط التقدم الصناعي ، والانتاج الكبير في كل من إنجلترا وفرنسا ، من مظاهر سوء الحال للطبقة العاملة ، وتوالى الأزمات ، فوجه نقده إلى الوسائل والأهداف كما وجهه إلى النتائج العلمية لتعاليم آدم سميث .

ورأى أن علم الاقتصاد من علوم الخلق ، ذات الصلات الوثيقة بجميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، ومن ثم فهو يستمد مادته من المشاهدة والتجربة ، وما وعاه من نتائج التطبيق .

وهكذا يمكن القول بأن (سيسموندى) لا ينفذ إلى نقد المذهب التقليدى (الذى أسسه آدم سميث) من ثغرة في منطقته ، وإنما من ظاهرة أثبتتها التاريخ مراراً وتكراراً ، وهى الفرق الكبير بين المقدمات والنتائج . ومن ثم عنى في دراسته لوظيفة علم الاقتصاد ، بالكشف عن آثار النظم الاجتماعية والسياسية على الرفاهية الاقتصادية للشعوب .

ثم تابع (سيسموندى) نظريته إلى الثروة على أنها مفهوم يتصل بتحقيق الرفاهة للجنس البشرى وقال بأنه يتعين العمل على وضع نظرية عادلة للتوزيع تلقى من العناية والاهتمام ما تلقاه نظرية الانتاج . ونعى على المذهب الفردى اهتمامه البالغ بالانتاج . كما نعى عليه أيضاً القول بأن زيادة الانتاج لا تحمل في طياتها شراً ، نظراً ،

إلى نشاط جهاز الثمن وقدرته على تحقيق التوازن الاقتصادى ...
وقال بأن مسألة زيادة الانتاج - مجردة عن بقية الاعتبارات -
تنطوى على خطورة بالغة ، لأنه ما لم تصحبها زيادة مماثلة فى رغبات
الأفراد وفى طلبهم الفعال ، فإن هذا يؤدى إلى أزمات وفرة الانتاج ،
ومن ثم إلى الكساد والبطالة وإفلاس المشروعات وضياع رؤوس
الأموال .

كما قال بأن المنافسة الحرة الطليقة تقضى على الضعفاء ، وأن
مساوىء التنافس وحرية التجارة ، تقع على عاتق الطبقة العاملة
التي تتعرض لأسوأ صور الاستغلال والعبودية ، ولهذا طالب بتدخل
الدولة ، لإلزام أصحاب الأعمال بكفالة العيش للطبقة العاملة
جميعها ، فضلاً عن كفالة العيش للمشتغلين فعلاً بالإنتاج .

ورأى أن زيادة السكان عبء ترزح تحته الطبقات العاملة ،
واقترح النظر فى إيجاد صور مناسبة من التعاون والتضامن بين
العمال وأصحاب الأعمال ، دون الاخلال بمبدأى حرية الفرد والملكية
الخاصة . ولم يسلم بالأسس التي قامت عليها تعاليم (آدم سميث)
من حيث التوافق بين صالح الفرد وصالح الجماعة ، وطالب بتدخل
الدولة تدخلاً إيجابياً يكون من شأنه زيادة نصيب العمال من الدخل
الأهلى ، وأسس اقتراحه هذا على النظرية الاقتصادية ، حين قرر
بأنه يعمل على تحقيق التوازن بين الانتاج كأثر للتقدم الفنى من
ناحية ، وتزايد القدرة الشرائية ، ممثلة فى الطلب الفعال الذى يجىء
من المستهلكين من ناحية أخرى .

هذه صورة سريعة لتطور الفكر الاقتصادي في أوائل القرن التاسع عشر وقد تأثر الكتاب الذين تقدم ذكرهم بأحداث التاريخ التي عاصروها أو سبقتهم بقليل ، وامتدت آثارها إلى وقتهم .

ويدور تفكيرهم حول قضية كلية تتلخص في أن الثروة لا تتطلب لذاتها وإنما لتحقيق الرفاهة . وأنه لا ينبغي للدولة أن تسلم بما يسمى الحرية المطلقة للفرد ، إذ أن هذا الفرد الذي ينشط ويربح . . . ما كان له أن يصل إلى شيء من ذلك لولا التاريخ الذي تجمعت آثاره وانتهت إليه في صورة مقومات مادية ومعنوية ، ولولا المجتمع والنظام اللذان يعيش الفرد المنتج في ظلها وبفضلها .

وجوهر هذه الدعوة يتلخص في ضبط المعاملات والأحداث الجارية ، على نحو يغير بالطريق السلمى البطيء ، ما بين طبقات الناس من صلات ونسب ، وكانوا بجهودهم يريدون أن يدرأوا تجمع أسباب الانقلاب الثورى العنيف .

وفما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ظهرت أيضاً حركة تعاونية غربية دعت إلى إنشاء محلات أو مستعمرات يعيش في كل منها مجتمع صغير ، وحاولت هذه الدعوة أن تناهض تجمع الثروة في ظل الثورة الصناعية . ولكنها فشلت إلى ما يقرب من سنة ١٨٤٤ لأنها كانت تقاوم اتجاه العصر . إذ كان الاتجاه إلى تجمع وحدات الإنتاج وتضخم الثروات . وما كان لدعوة أن تستجاب - في ظروف كهذه - وهى تفترض امكان تقسيم المجتمع إلى طوائف صغيرة تعيش في شبه عزلة وبوسائل العصور الأولى .

ومن الغريب أن هذا التعاون الغربي ، الذى تنكر للديانات
ولبعض الأوضاع الاجتماعية المستقرة ، كنظام الأسرة وعقد
الزواج ... من الغريب أن هذه الدعوة - التى قامت للحد من
سلطان رأس المال - لم تسعفها فلسفتها الخاصة بمقومات تطيل
بقاءها ، إذ اعترفت برأس المال والفائدة المحدودة من سنة ١٨١٣ ،
ثم فشلت مع ذلك ، ثم عادت متواضعة من سنة ١٨٤٤ ، واقتصرت
على تنظيم الاستهلاك وأخلت ميدان الفكر الاقتصادي لطائفة
أخرى من المفكرين الذين هالهم استمرار سوء الحال ، ومن ثم
جنحوا إلى الدعوة السافرة لهدم البناء وتقويضه ...

لقد كان المفكرون من أمثال (مولر) ، (ولست) ،
(وسيسموندى) يدعون للتطوير السلمى البطيء ، خشية تجمع
أسباب الثورات العنيفة ، ولكن الطبقات الحاكمة والقادرة كانت فى
شغل شاغل ، بجمع المال ، ومد النفوذ والسلطان عبر البحار ،
وتنظيم المشروعات الضخمة وبناء المستعمرات ... ولم تشغل
الاصلاحات الاجتماعية من وقت أولى الأمر قدراً يذكر ، حتى تفاقمت
حركات العمال ، وظهرت الآراء العنيفة كأراء (كارل ماركس) ،
وقد تطورت بعد ذلك ، وهاجرت من المجتمع الصناعى فى غرب
ألمانيا (فى أواخر القرن التاسع عشر) إلى المجتمع الزراعى فى
روسيا القيصرية ، ومهدت هذه الأحداث لظهور الشيوعية المعروفة
الآن .

وإن كانت الاشتراكية قد مهدت لها أيضاً ، إذ خالطت دعوة
المصلحين من رجال الفلسفة والاقتصاد طوال القرن التاسع عشر .

ورث القرن العشرون تراثاً فكرياً زاد فيه الخلاف . . . إذ لم تسفر تطورات القرن التاسع عشر عن الوصول إلى أوضاع اقتصادية سليمة تنظم علاقات بعض الناس ببعض . ومن ثم استمرت الحال ، وتتابع ظهور المدارس الفكرية ومن أهمها ما يعرف بالمدرسة الأمريكية التي كان لها شأن في تطور الفكر الاقتصادي من أوائل القرن العشرين بصفة خاصة ، ومن رجال هذه المدرسة (فبلن) . وفيما يلي طرف من آرائه :

ثورشن فبلن Thorstein Veblen ١٨٥٧ - ١٩٢٩

في الوقت الذي بدأ فيه (فبلن) دراسته ، كان الاقتصاديون من أساتذة الجامعات في ألمانيا يدخلون المنهج التاريخي (الذي نادى به أمثال (مولر) و (لست) و (سيسموندى) في دراسة علم الاقتصاد ، ومنهم من ألقى ظلاً كثيفاً من الريب على وجود قوانين طبيعية تحكم سلوك الانسان حال تدير معاشه . ومن ثم فقد استمد هؤلاء مادة البحث في علم الاقتصاد من تعاقب الظروف السائدة ، وأسسوا نظرتهم إلى هذا العلم بوصفه تعبيراً عن رأى معين مسلم به ، لا بحثاً في ظاهرات مادية تستمد ثباتها من الطبيعة . ومن هؤلاء : كارل نيس ، وشمولر ، وميمارت ، وويبر . الذين أسهموا في إمداد الفكر الاقتصادي بنزعة البحث التاريخي ، وتقديم فكرة الرفاهة والعوامل النفسية ، حال النظر في وظيفة علم الاقتصاد . وتأثر تلاميذ هذه المدرسة إلى حد بعيد ، بما استجد من آراء أضيفت إلى مقترحات من كتب في أوائل القرن التاسع عشر ،

والربع الأول من القرن العشرين . ومن هؤلاء الذين تأثروا بتطوير الفكر الاقتصادي خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، الاقتصادي الأمريكي (فبلن) .

وجه (فبلن) نقده اللاذع إلى المعايير الاجتماعية التي تحدد سلوك الأفراد في ظل النظام الرأسمالي الخالص ، وقال :

بأنه إذا جرد هذا النظام مما تقنع به من ستار براق ، لظهر على حقيقته ، وما هو - في تقدير فبلن - إلا صورة مكررة من سابقتها التي سادت الجماعات البربرية . . . وقال بأن النظام النقدي وما يصاحبه من صراع على تجميع الثروات ، يؤدي إلى تكرار العمليات التي مارسها الإنسان في عصور الهمجية الأولى ، من بطش وسلب واكتناز . ووصف الطبقة العالية التي عاصرها بأنها طبقة مميزة بالإعفاء من بذل المجهود .

وبأنها وصلت إلى مركز الصدارة في المجتمع الصناعي بأساليب تتسم بالوحشية ، وبالحرص على المصلحة الذاتية ، وإيثار الأهل والعشيرة والأعوان ، والتذرع بالاحتياال أو بالقوة الغاشمة في سبيل تحقيق المصالح الفردية ، ممثلة في سحق المنافسين ، واكتساح الأسواق ، وجمع الثروات ، وتنميرها ، والحرص الشديد على كل من الأصل والثمرة بصرف النظر عن الآثار الاجتماعية .

وهذا الأسلوب ذاته هاجم المشروعات الصناعية والتنظيمات الاحتكارية .

وقال بأن الأصل في قيام الصناعة وفي تقدمها ، حين تستخدم

أحدث الأساليب الفنية والادارية ، إنما هو انتاج ما يحتاج إليه كل الناس ، من طيبات تشبع الحاجات .

ولكن رجال الأعمال حولوا هذه المشروعات إلى أدوات للسيطرة على الانتاج ، بقصد امتصاص المال ، ولو أدى ذلك إلى تضيق الأرزاق . ومن رأى (فبلن) أن كسب المال الوفير يتعارض مع الانتاج المؤدى للرفاهة . . . لأن تحقيق الثراء الضخم يكون عادة بالحد من الانتاج أو بالتحكم فيه . ويضيف أن الحصول على الثروة كثيراً ما يجرى رخاء وبسرعة بالغة في ظل النظام الرأسمالى ، دون الاستغلال بالانتاج ، أو بالتجارة بمعناها التقليدى وإنما بحيازة المستندات الدالة على الملكية ، وتكريس الوقت والحيلة لأعمال السمسرة والوساطة في نقل شهادات ملكية السلع ، وفي الأوراق المالية واحتكار الأسواق واصطناع الأزمات لتحقيق الأرباح الفاحشة .

ومن رأى (فبلن) أن الصراع الذى تدور رحاه في ظل النظام الرأسمالى ، ليس في حقيقته صراعاً بين العمال ، كطبقة مميزة ، وأرباب الأعمال كطبقة أخرى ، على نحو ما صوره كارل ماركس ، وإنما هو صراع بين الفرائز : فالعمل سلوك ظاهرى يجد جذوته المتقدة في تشبث الفرد بالبقاء وأما اجتناء الربح ، فسلوك آخر يجد أصله في غريزة التملك (Aquistion Incentive) وفيما بين هذه الدوافع النفسية بأصولها وبفروعها ، تنازع ، يرى فيه (فبلن) تفسيراً للصراع الذى يبدو وكأنه طبق . . .

ذلك أنه رأى الفراغ الخفيف الذى يفصل بين السلوك الاقتصادى الفعلى للأفراد فى ظل الرأسمالية ، وبين المنطق الرصين الذى يبدو صادقاً وبريئاً ، عندما تجرى على مقتضاه أقوال المدافعين عنها ، والداعين إلى اعتناقها . ورأى أنه فى ظل النظام الرأسمالى قد استبعدت الملكات والعقول ، وحيل بين الفهم الواعى من جهة ، وبين التطبيق العلمى من جهة أخرى ، أن يكونا على اتفاق يؤدى إلى رفاهة الانسان ... مع أنه من شأن التقدم الذى حققته الحضارتان المادية والفكرية ، أن تكون هذه الرفاهة أقرب مثلاً مما كانت عليه فى عهود سابقة على التقدم الفنى المعاصر .

ورأى أن علم الاقتصاد ، كمجموعة قوانين تحكم نظاماً أبدياً ... قد انقضى ، لأنه لا يأخذ فى حسابه ظاهرة التطور ، ولأنه لا وجود فى عالم الحقيقة لنظام اقتصادى ثابت يمكن أن تستنبط منه ، أو توضع من أجل تحقيقه ، قوانين ثابتة تصح على البرهنة فى كل الظروف .

ولئن كانت كتابات (كارل ماركس) قد سبقت ظهور (فبلن) ، إلا أن اقتصاديات (كارل ماركس) كانت تقليدية ، كما أن التطور الاجتماعى الذى أدخله فى حسابه كان أشبه بالتطور الطبيعى للكائنات الحية ، التى تخضع حال تطورها لنسق ثابت لا ينحرف ولا يلين ، حتى يصل التطور بالكائن إلى غاية مقدرة له من قبل ، أو مقدرة عليه .

وفى رأى (فبلن) أن التطور الاجتماعى الذى تمر به الأجيال ،

ليس من قبيل ما تقدم ذكره من تطور معين ، في ضوء ما يسود هذا المجتمع من نماذج ثقافية .

ويعلل ذلك بقوله : (ان السلوك الانساني هو وليد الصرح الاجتماعي والقيم التي تحكمه ، ومن ثم يتعين حصر البحث العلمي لهذا السلوك في دراسة المؤثرات التي تنبعث من الصرح الاجتماعي ، ومن القيم التي تحكمه ، على نحو يؤثر في السلوك ويشكله حال خروجه إلى عالم الحقيقة) (١) .

ولا تزال المدارس الفكرية تطالعا في كل يوم بجديد ، ولا تزال المدرسة الامريكية ناشطة ، وكذا المدرسة البريطانية بصفة خاصة . وللكتلة الشرقية مذهبها المعروف ، وقد خرجت علينا جامعة كيمبردج بآراء جديدة للأستاذ (والت ويتان روستو) ناقش فيها من جديد مذهب (كارل ماركس) وهو يعارض الملكية ورأس المال والفائدة . وكان ذلك في سنة ١٩٥٩ ولا يزالون يختلفون .

كان من شأن هذه الجهود المتصلة خلال قرنين كاملين - من أواسط القرن الثامن عشر إلى وقتنا هذا - أن تبلورت بعض القضايا الكلية وظفرت بقدر كبير من الاتفاق ، على الرغم من استمرار الجدل حول التفاصيل ، وعلى الرغم أيضا من اختلاف المذاهب الاقتصادية ومن ذلك :

(١) راجع : المشكلات الاقتصادية ، للدكتور عبد العزيز مرعي والاستاذ عيسى عبده ابراهيم .

١ - العدول عن القول بأن الثروة مفهوم مادي خالص ، إلى القول بأنها مفهوم تخالطه فكرة اجتماعية تهدف إلى تحقيق الرفاهة .

٢ - تهذيب المنطق الذي تستند إليه الملكية الفردية في تبرير اعتراف المجتمع بها ، بحيث أصبحت هذه الملكية وظيفة اجتماعية ، تفرض على المالك أن يضيف إلى القوة الانتاجية لثروته قدراً يزيد على ما يصيب هذه القوة من نقص بسبب الاستهلاك .

٣ - الاستبعاد لبعض النظريات التقليدية ، كالقول بحتمية تحقيق الخير للفرد كنتيجة آلية لسعى فرد آخر إلى تحقيق مصلحته الذاتية . واستبعاد بعض قواعد النظرية الحديثة ، كحتمية التوازن الآلى ، نتيجة لتفاعل عوامل الطلب والعرض على رأس المال والعمل ، وإحلال الاعتبارات الاجتماعية المتطورة فيما ينشأ بين الناس من علاقات اقتصادية ، محل إطلاق العوامل الطبيعية على سجيها لتؤتى آثارها .

٤ - التسليم بأن النظام الاقتصادى هو مفهوم نسبي يستمد وجوده من المجتمع ويتأثر بالنماذج الثقافية التى تسود فيه ، واستبعاد فكرة النظام الاقتصادى الثابت .

٥ - تهذيب فكرة الحرية الفردية بما استقر للدولة من حق تحمل المسؤولية عن تحقيق التعاون فيما بين أفراد الجيل المعين . واتصال التعاون على الأجيال المتعاقبة .

٦ - الاعتراف بالمنهج التاريخي ، كأسلوب علمي لإمداد علم الاقتصاد بمادته المتطورة ، ولتقدير صحة القواعد المستقرة في زمن ما ، في ضوء النتائج التي تترتب على تطبيقها .

* * *

ومن جملة هذه الآراء المركزة ، التي انتهى إليها الجدل ، يتضح أن رفاهة المجتمع (ككل) مقدمة على ما عداها من الاعتبارات ، بما في ذلك نظرة الفرد إلى الملكية على أنها حق استبدادي مطلق ، يحجز للفرد أن يتشبث بالأصل وبالثمرة جميعاً ، وإن أدى ذلك إلى إرهاب الضعيف أو المكدود والمحروم ، وهو عادة من يحتاج إلى القرض ، أياً كانت صورته ، وأياً كان نوع العقد المبرم بسببه بين الدائن والمدين .

* * *

نماذج من ثقافة الإسلام :

نعود الآن إلى ثقافة أقدم وأثبت من كل ما قدمناه . . . ونتساءل : هل جاء الاسلام خلواً من النماذج الثقافية التي تحكم سلوك الفرد حال عديد معاشه ؟ وبعبارة أخرى : ما دمنا قد وصلنا إلى تتبع الفكر الاقتصادي حتى انتهى في القرن العشرين إلى ما قالت به المدرسة الأمريكية ، متابعة في ذلك ما نادى به رجال الفكر الفلسفي والاقتصادي في القرن التاسع عشر . . . فإن لنا الآن أن نتساءل : هل عنى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، واجتهاد الأولين ، بتقرير

المبادئ الثابتة التي تؤلف في مجملتها نموذجاً ثقافياً رائعاً للمعاملات بين الناس ؟ وإذا ظهر من التأمل في بعض ما بين أيدينا من ثروة فكرية ... أن الاسلام قد قرر من المبادئ ما لم يصل إليه بعد تطوير الفكر الاقتصادي في الغرب ... وأن هذه المبادئ التي قررها الاسلام ، قد تفردت بالكمال والثبات جميعاً ... فهل يجوز لنا أن نغفل هذا التراث ، بحكم الولاء السلبي لبلاد انغمست في المادية إلى حد أزعج المصلحين ورجال الفكر من أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن ، ولم يصلوا بعد في اجتهادهم إلى بعض الكمال الذي قرره الإسلام ؟ ... هذا هو السؤال الذي أتعرض لبعض مقومات الاجابة عنه ، دون ادعاء توفية البحث حقه ...

سأعرض أولاً لأروع مثل ضربه الاسلام في خصوص الثروة ومدى الحرص عليها وتسخيرها لتحقيق الرفاهة :

سأعرض لنموذج انساني خالص يبين لنا نوعاً أو نمطاً من أنماط الصلات التي يقررها الاسلام فيما بين أفراد المجتمع الواحد ، ومن ثم بين أفراد الناس وطوائفهم وجماعاتهم بوجه عام .

وإنه لمثل يملك على النفس مسالك التفكير ، ولا يملك الباحث حياله إلا أن يسجد لله حمداً وشكراً على ما قرره من أوضاع سليمة ، لا يصح البناء الاقتصادي إلا عليها ...

وحدانية الله أسمى الغايات

يقول الله سبحانه وتعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» ^(١).

ومن ثم كان الشرك أكبر الكبائر. ولا ينازعه في هذا الدرك إلا الغرور. لأن الغرور قد أدى إبليس إلى عصيان أمر ربه ، حين أجاب بقوله : «أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين» ^(٢).

الشرك بالله إذن هو أكبر الكبائر ومع ذلك فلننظر إلى هذه الآيات الكريمة :

«ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتبئكم بما من كنتم تعملون» ^(٣).

صلة الرحم أهم لبنة في بناء المجتمعات

وقوله تعالى : «ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين ، أن أشكر لي ولوالديك ، إلى المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ،

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٧٦ من سورة ص .

(٣) الآية ٨ من سورة العنكبوت .

وصاحبها في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إلى ، ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون «^(١) .

القرآن يوصي الانسان بوالديه خيراً ، ويوصيه أن يصاحبها في الدنيا معروفاً حتى وإن جاهداه على أن يقترف الكبيرة التي لا تغتفر . وهي الشرك بالله .

وما هو المعروف ؟ أهو مجرد التحية أو كف الأذى ؟ أم هو صلة الرحم ، ودفع الأذى ، والإمداد بما يدفع العوز ، أو يقيم الأود ويحفظ ماء الوجه ... ؟

القرآن إذن يوصي الإنسان بالمعاملة الرحيمة الخيرة مع الوالدين ، حتى وإن جاهداه على أن يشرك بالله ما ليس له به علم . ولفظه المجاهدة هنا لا تشير إلى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا الدعوة بالغلظة والعنف ، وإنما تشير هذه اللفظة إلى كل ما يرمز إليه الجهاد والمجاهدة من قسوة وخسونة وإكراه ...

فإن فعل الوالدان بولدهما شيئاً من ذلك ، فما موقفه ؟ « فلا تطعها » وهل يصح في الفهم أسلوب في معاملة الوالدين (وإن كانا من الكفار) أرق من هذا الأسلوب ؟ ... لم يقل الكتاب الكريم بالعصيان ولا يشق عصا الطاعة ، ولا بالمعاملة بالمثل ، وإنما قال فقط « فلا تطعها » ثم أردف بعد ذلك مباشرة « وصاحبها في الدنيا معروفاً » ... لا أريد أن أطيل ، لأن الحديث ممتد ...

(٤) الآية ١٤ ، ١٥ من سورة لقمان .

ولكنى أقول : بأننى أثير من القضايا أخطر ما عرض للفكر
البشرى ، وأطلب نفسى والقراء بمعاودة النظر فى نوع الصلة التى
تقررها هذه التوصية .

وللباحث أن يتساءل : أهى صلة أساسها الأثرة والفناء فى حب
المال ؟ أهى صلة قوامها المادية الخالصة والنظر إلى الثروة على أنها
مفهوم مادى خالص يعرض عليه المالك بالنواجز ، ومن ثم يقتضى
الأصل ويقتنص الثرة دون مراعاة لأى اعتبار اجتماعى يشيع المحبة
بين الناس ؟ . أم هى صلة مبرأة من كل عيب وداعية إلى إقامة
المجتمع على أساس من المودة والمعروف ، حتى وإن كان بين أفراد
الأسرة الواحدة خلاف فى رأى حول الدين ...

وحين تقوم الصلات بين أفراد الأسرة الواحدة على أسس من
هذا النموذج الانسانى البالغ السمو ، فعلى أية صورة يحسب
المجتمع ... ونحن نعلم بأن المجتمع هو جملة من الأسرات ... فما
الأسرة إلا اللبنة الواحدة التى يتألف من تكرارها كل مجتمع أخذ
قدر من الحضارة ...

الاتفاق أمر إلهى ، فالمال مال الله ، ونحن مستخلفون فيه

تطور الفكر الفلسفى والاقتصادى خلال قرنين كاملين ، ووصل
أخيراً إلى القول بأن الملكية ليست حقاً استبدادياً مطلقاً ، وإنما هى
وظيفة اجتماعية .

وفى هذا تفصيل ، أشرنا إلى لمحة منه فيما تقدم من قول ، فلننظر
إذن إلى هذا القول القديم الذى لا يقبل التطور ولا التطوير . . .
« امنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين
آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » (١).

القرآن إذن يدعو إلى أن نؤمن بالله ورسوله ، ثم يتبع ذلك
مباشرة توصية بالانفاق ، ثم يصف المال وموضعه من الذمة المالية
لل فرد بعبارة بالغة الدلالة إذ يقرر :

« مما جعلكم مستخلفين فيه » فالمال إذن مال الله ، والفضل منه
وإليه . وما الانسان إلا خليفة فيما عهد به إليه من ثروة أو إيراد
أوجاه ، والانسان مكلف ومأمور بأن ينفق مما هو مستخلف فيه من
مال .

فا هو الجديد الذى جاء به تطوير الفكر الاقتصادى والفلسفى فى
القرنين الأخيرين ، حين وصل فى آخر مراحل الاجتهاد إلى القول
بأن الملكية وظيفة اجتماعية ؟

وأى التعبيرين أولى بالتقديم ، وأيهما أدعى إلى يقظة الضمير
وخشية الحساب يوم لا ينفع مال ولا بنون :

القول بأن الملكية وظيفة اجتماعية كما قرر الفكر الانسانى بعد
طول عناء ؟

أم القرآن الذى يشير إلى أن يد الانسان عارضة ، ومصيرها إلى

(١) الآية ٧ من سورة الحديد .

زوال ، وملكيته نوع من الخلافة ، ومن ثم فهو مسئول أمام من استخلفه ؟ .

على أن الاسلام لا يلقى أدنى ريب أو شك على ملكية الفرد ، بدليل قول الله تعالى في خطابه للمرايين « وإن تبتم فلکم رؤس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون^(٢) » ... فإذا كان القرآن يقرر ملكية المرابي لرأسماله إن تاب ، فكيف نرتاب لحظة في أنه يقرر الملكية الفردية لغير المرابي ؟

لقد جهد رجال الفكر الغربي طويلاً في القرنين الأخيرين في مناقشة الملكية ... لسبب واحد هو ضيقهم بما تؤدي إليه من أثره وتضعيف مستمر للثمرات إلى حد إرهاق الضعفاء ، ومن ثم هاجموا هذه الملكية كحل أخير لإلغاء الثمرة الباغية ، ومن أقسى صورها الربا في كل درجاته ...

أما الاسلام ، فقد نظم الملكية ونظم الثمرات على نحو يكفل انسياب الأرزاق بين الناس بأسلوب يقرب من الفروق بين الثروات والايادات ، وهذا وضع يجيء على خلاف المعاملات الربوية تماماً . ولهذا كان الربا ظلماً ومقتاً وساء سبيلاً .

وصايا إلهية بالاضافة إلى الحقوق المفروضة

ثم انظر إلى جملة هذه النماذج الرائعة التي تجيء بالاضافة إلى الحقوق المترتبة على المعاملات المشروعة . وبالاضافة إلى المواريث

(١) الآية ٢٧٩ من سورة البقرة .

ونحوها من أنظمة تحكم الصلات بين الناس على نحو يكفل صلاح المجتمع .

أقول : فلننظر إلى هذه الوصايا التي تستهدف التهذيب والسمو بالنموذج الثقافي لأحكام الاسلام ، بالاضافة إلى الحقوق المفروضة .
قوله تعالى : « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » (١) . وأود أن أقف برهة للتساؤل عن مدى ما في هذا التوجيه الإلهي من مراعاة المعاملة الخيرة السامية ...

وقد أوصانا الله سبحانه وتعالى بأن نجعل لكل من الأقربين واليتامى والمساكين حظاً فيما تجرى قسمته من مال ، وإن لم يكونوا من أصحاب الحقوق أصلاً . يوصينا الله سبحانه وتعالى بأن نتسامى عن فكرة المادية الخالصة حال النظر إلى المال ، وأن نفهم أنه وسيلة لا غاية ، وأن الثروة ليست مفهوماً مادياً خالصاً ، وإنما هي مفهوم تخالطه فكرة تحقيق الرفاهة للمجتمع . وأولى الناس بالبر والاحسان في المعاملة ، الأقربون ، ومن حضر ، من غيرهم كاليتامى والمساكين ، قسمة مال حاضر ...

أقف قليلاً لأتساءل عن كنه هذه الفلسفة التي تدعونا إلى أن ننظر للمال نظرة عميقة بوصفه وسيلة إلى إسعاد الناس ، لا مادة تطلب للإكتناز ؟ .

(١) الآية ٨ من سورة النساء .

وتدعوننا إلى أن نفهم أن السعادة التى ندخلها على قلب محتاج ،
أو يتيم أو مسكين هى أصلح فى تقرير الصلات بين أفراد المجتمع ،
من كل حيازة وملكية .

ثم أقف مرة أخرى عند قوله تعالى : « وقولوا لهم قولاً معروفاً » .
وفى هذه الآية تنبيه وتحذير ، مؤداهما : أن يا عباد الله ، إن فعلتم
ما أوصيكم به من رزق الحاضرين لمجلس القسمة ، فلا تتبعوا فعلكم
الخير منأ ولا أذى ، بل قولوا لهم قولاً معروفاً ، حال تقديم الحصص
أو النصيب الذى رأيتم أن يكون لحاضر القسمة من غير ذوى
الحقوق .

وهذه الوصية تذكرنا بقوله تعالى : « قول معروف ومغفرة خير من
صدقة يتبعها أذى » ^(١) ومودى هذه التوجيهات أن يتق الإنسان ربه
فى معاملته الضعيف والمحتاج ، إذا رأى أن يجرى عليه صدقة أو
معونة ، ولا يتعالى على من وصله بالمال ، لأن فى هذا الفعل أذى
للنفس يذهب بكل أثر حسن لما أجراه المقتدر من صدقة
أو مساعدة مالية .

... ولليتامى عناية خاصة

على أن ذكر اليتامى فيما تقدم بيانه ، يذكر بتوصيات أخرى
وردت فى كتاب الله العزيز ، وكل منها تشير وتؤكد الإشارة إلى
العناية بأمر اليتيم ، وتحذر من ظلمه . ومن ذلك قوله تعالى :

(١) الآية ٢٦٣ من سورة البقرة .

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً »^(١)

ومن ذلك أيضاً ، حذب سيدنا الخضر على مال لغلامين يتيمين ، في قوله تعالى : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما . . . »^(٢)

وفي تكرار العناية بأمر اليتيم ، وفي ضرب الأمثال من قصص الأولين ، كما كان من شأن سيدنا موسى مع الخضر . . . أقول بأن في هذه العناية الخاصة بمرکز اليتيم في المجتمع ، تحصيناً لصلة الضعيف الذي فقد أبويه أو فقد أحدهما بحيث أصبح كسير الجناح . . . تحصيناً لصلة هذا الضعيف بالمجتمع ، وتقرير حق له على كل قادر .

وفي كل مجتمع يتامى ، حتى في زمن السلم ، وفي أعقاب كل جهاد أو دفاع يكون هناك يتامى ، والاسلام بما يقرره من نماذج ثقافية ، يرمى من هم في حاجة إلى رعاية المجتمع ، ويوصي القادرين بأن ينظروا إلى هذه الأمور على أنها قواعد تصلح من شأن الناس جملة . . . ولا صلاح لهم إن هم تابعوا خصال الجاهلية من إسراف في حب المال ، وتطاحن في سبيله ، وحرص على أن يظلم القادر الضعيف . . .

وفي هذه الوصايا باليتيم أيضاً تحصين نفسى للمجاهدين ، وقد

(١) الآية ١٠ من سورة النساء .

(٢) الآية ٨٢ من سورة الكهف .

علموا بأن الاسلام لم يترك أبناءهم من بعدهم سدى ، وإنما عني بتقرير صلة اليتيم بكل مقتدر في غماذج شتى ، قدمنا أمثلة قليلة منها . وفي هذا ما يحمل المجاهد على مزيد من الاطمئنان حال جهاده ، وإن كانت ثقته بالله كافية ، إلا أنه مما يزيده ثباتاً ... علمه بأن عياله لن يكونوا غرباء على المجتمع ، بل لهم فيه مركز ، وتربطهم بكل مؤمن قادر صلات ووشائج قررهما القرآن الكريم .

رأينا في أقوال مفكرى القرن التاسع عشر - بصفة خاصة - ما ذهبوا إليه من أن رأس المال لا ينفصل عن التاريخ . وأن ملكية الفرد في زمن معلوم لا تنفصل عن الأحداث التي توالى وأسلمت إليه ثمرة جهود الأجيال السابقة ، وأن هذا المال ما كان ليسعد صاحبه لولا النظام الذى يسود المجتمع ، وعلى رأسه السلطة المسؤولة أو الدولة .

ورتبوا على هذا كله حق الدولة فى أن تأخذ هذا المال أو أن تغترف منه إن اقتضى الصالح العام ذلك .

ولقد انتهى تطور الفكر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر إلى تقرير نماذج من القانون الوضعى ، التى تنص على أن المال الخاص يكون ، فى حالات بعينها ، من حق الدولة . مادام هذا المال الخاص يتصل بتحقيق منفعة عامة ، أو ينشط فى مجال احتكارى أو نحوه . ومن أقرب الأمثلة ... ما جاء فى دستور ديجول (لفرنسا) عام ١٩٤٦ وما نص عليه دستور الجمهورية العربية المتحدة فى سنة ١٩٥٦ .

ولكن الاسلام سبق إلى تقرير حق الدولة على المال الخاص لتحقيق الصالح العام ، ولقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام عن الاستخلاف . ثم نزيد الآن أن القرآن يقرر الأخذ من الاموال لتطهيرها وتزكيتها . وذلك في قوله تعالى :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها ، وصلّ عليهم ، إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم . وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » ^(١).

ويراد بكل من التزكية والتطهير - فيما نحن بصدده - إخراج حق الضعيف من جملة ما تجمع للمقتدر من مال ، لا يدرى إن كان في تجمعه قد اشتمل على حق أو نصيب لمحرور ... ولا يدرى إن كان في تجمعه هذا قد حمل في طريقه إلى الغنى قطرات من أرزاق الناس هم في أشد الحاجة إليها ...

ولمزيد من البيان ، نضرب مثلاً من حياتنا اليومية : انظر إلى ثرى يساهم في مرفق عام كمرفق المياه أو شركة لتكرير السكر ، أو شركة لتقطير السبرتو ونحوه من وقود ، يحتاج إليه الشعب الضعيف . انظر إلى قطرات الربح التي تتجمع لمرفق المياه حال استغلاله بمعرفة شركة ، وربح منتج السكر وربح منتج الوقود ...

(١) الآيات ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ من سورة التوبة .

لترى أنه يتألف من دربهات تعد بالألوف أو بالملايين ، ويدفعها المشترون لهذه السلع ، ومنهم من يفاضل بين كسرة الخبز وقطرات من الوقود يصلح بها شأن داره ، أو يشيع بها بعض الضياء لولده أو لزوجته وهى بسبيل تدبير شئون الاسره وحين نطيل النظر إلى أمثلة من هذا الطراز يتضح لنا كيف يكون فى الأخذ من الأموال تطهير وتزكية ... إلا أن الاسلام سبق إلى تقرير هذا الحق ، وثبت عليه . على حين أن الفكر الاقتصادى الغربى لم يصل إلى مثل ذلك إلا بعد قرون من الظلمة المألكة فى العصور الوسطى وجهود مضنية من عهد المدرسة التاريخية التى نشطت فى أوائل القرن التاسع عشر ، وقد جئنا بطرف من أقوال مفكرىها ... كل ذلك بالاضافة إلى الزكاة وهى فريضة وفيها أبواب وفصول من البحث الذى يشهد للإسلام بكمال التشريع ...

ولكننا - فى حديثنا هذا - نشير إلى النماذج الثقافية التى تتألف من جملة وصايا القرآن وتوجيهاته ، دون التقيد بالفرائض والعبادات ... فإن لهذه شأنها ولها موضعها من بحوث خاصة ، لا يتسع لها المقام الآن .

* * *

ثم لننظر إلى هذا النموذج السمع الكريم ، فى قوله تعالى : « ... وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس

ما كسبت وهم لا يظلمون» (١).

يوصينا الحق تبارك وتعالى بإمهال المدين المعسر حتى يصيب من اليسر ما يمكن له من أداء دينه ، وفي هذه التوصية رحمة بالمعسر ، وفيها نغظ من مراعاة الفضل حال المعاملة .. ولكن ، فلنتأمل قوله تعالى : « وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

وهنا يسمو النموذج الاسلامي فوق ما يخاطر على قلوب العلماء ، من معاني الترابط بين الناس في سبيل صلاح الجماعة ، على نحو ما حاول مفكرو القرن التاسع عشر . فאלله تعالى يقول بأنه حين يعلم الدائن من أمر مدينه عسراً وعجزاً فإن الإمهال وحده لا يسمو بتصرف الدائن إلى ما يوصى به الرحمن من صور المعاملات الخيرة بين الناس ، وإنما يحسن الدائن صنعا إذا هو ترك الدين وتصدق به على المدين ... ثم ينبه إلى أن هذا خير للمجتمع ... فكيف كان ذلك ؟ أفرأيت إلى المجتمع الذي يتراحم فيه الناس حتى تصل المعاملات بينهم هذا المستوى الرفيع - هل يبقى فيه حاقد أو ناغم يفكر في الانقلاب والثورات ؟؟ .

أفرأيت إلى مجتمع هذا شأنه ، هل تتخلف فيه الجماهير عن نصره الفرد إن حلت به كارثة : كأن تحترق داره أو زرعه ، كما يحدث في الريف ، حيث لا تتوفر أنظمة الاطفاء وهل يغيب عنا أن الانسان

(١) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .

بالفة مكانته من المجتمع ، وبالفة قدرته وثروته ما يريد من مستويات ... هذا الانسان هل يستغنى حقاً عن الكثرة المجاهدة الكادحة ؟

هذا قول يبدو وكأنه عاطفى ، ولكن انظر إلى قواعد الاقتصاد وما تقرره :

إن التخفيف عن الضعفاء من المدينين وغيرهم فيه تمكين لهم من استئناف الكفاح فى سبيل العيش ... وكل مساعدة لهم تعود بالخير على المجتمع ، لأنه بالإبقاء عليهم ما يودى إلى اتساع السوق ووفرة الطلب على السلع وزيادة نشاط الأموال التى يثمرها أصحاب الأموال .

ومن ثم يكون التنازل عن الدين خيراً - آخر الأمر - للدائن الذى تركه ، وهو يفيد من ذلك بأكثر من المدين الذى أعفى من دينه ، على المدى الطويل ويصدق هذا القول على معاملات الأفراد ، كما يصدق على معاملات الدول ، وفى هذا تفصيل هام لا يتسع له المقام الآن .

ثم إن النماذج الثقافية التى جاء بها الكتاب الكريم ، وجهت أجلة الصحابة خير توجيه ، وهدتهم إلى وضع القواعد التى تتفق مع اتجاه الاسلام إلى تقرير السلام فى المجتمع . وقد ضربنا بعض الأمثال من فهم سيدنا عمر لبعض الآيات الكريمة (فى المحاضرة الأولى) ونزيد

الآن طرفاً يسيراً من فهم الخليفة الثاني لقواعد الأخذ من المقتدر
لصالح الضعيف ، ومن ذلك :

في وصايا سيدنا عمر بن الخطاب ، كما في أساليبه الخاصة بإدارة
شئون الأمة ، أمثلة غير مسبوقة من حيث وضع القواعد الأساسية
التي تكفل قدراً عظيماً من العدالة الاجتماعية . ومن الأمثلة على
ما نشير إليه : قول عمر : (أوصى الخليفة من بعدى بتقوى
الله... وأوصيه بأهل الامصار فإنهم رداء الاسلام ، وغيظ العدو ،
وجباة المال ، ألا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضى منهم . وأوصيه
بالأعراب ، فإنهم أصل العرب ومادة الاسلام ، أن يأخذ من حواشي
أموالهم فيرد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله عليه
السلام أن يوفى لهم بعهدهم . وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق
طاقاتهم » .

وبالرجوع لهذا القول المرسل على السجية ، يتضح أنه جمع من
القواعد المستنيرة طائفة حسنة ومنها :

ضوابط الجباية : وقد جاء في ذلك بأمرين كانا دائماً من أهم
خصائص الضريبة العادلة وهما :

١ - أن لا يكون دافع الضريبة في حاجة إلى ما يجبي منه . وذلك
في قوله : (ألا يأخذ منهم إلا فضلهم) والفضل هنا هو الزائد على
الحاجة .

٢ - أن تكون الجباية بالمعروف ، أى بالوسائل اللائقة بمجتمع

متحضر . وذلك في قوله : (عن رضى منهم) ، ومن ثم فقد انتفى الإكراه بصوره المعروفة . بل ينتفى أيضا شبه الإكراه مثل الإحراج والتوريث ، على نحو ما تفشى في المجتمعات الموصوفة بالحضارة . على أن هذا الفقيه المطبوع ، عاد إلى المعنى الأول يؤكد بأسلوب مغاير مع المحافظة على المعنى ، حين قال في الفقرة التالية ، وفي مناسبة ثانية تشبه الأولى :

(أن يأخذ من حواشى أمواهم) . والحواشى هي الفضل أو الزيادة ، وإن كان الفرق بين مدلول اللفظتين في المدى ، مستقراً في فقه اللغة ، ذلك أن الفضل بمعنى الزيادة أشبه بحال الموسرين وهم أهل الأمصار . . . على أن الحواشى قد تلتصق بالأصل وتكمله . ومن ثم كان مدلول هذه اللفظة بدورها ، أشبه بحال الأعراب ، وهم سواد الأمة . (أى كثرتها الغالبة) في عهد عمر ، وهذا ما يقابل في لغة العصر قولهم : الجمهور من دافعى الضرائب . وإن في مجرد التفرقة في الصياغة ، بإستعمال عبارة (الفضل من المال) للطبقة الموسرة ، وعبارة (حواشى أمواهم) لما دون ذلك من طبقات المجتمع ، لتحديداً لوعاء الضريبة . . . تحديداً وصفيًا ، ولا تنقصه إلا الترجمة إلى أرقام .

ثم إن الأرقام تفقد صلاحيتها في المقارنة الزمنية ، إلا إذا قدمنا لذلك بتوحيد المستويات ، أما التحديد الوصفى فإنه أصلح للبقاء عبر الأجيال ، لأن هذه القاعدة الواضحة (تكون الجباية من فضل المال) تبقى صحيحة في كل العصور ، على حين أننا إذا قلنا مثلاً :

يعنى ما زاد على مائة جنيه أو ألف جنيه ، لتعين تحديد البلد والزمن ، والحالة المدنية ، قبل أن يقال بأن ما يزيد على القدر المعين ، هو بالفعل مال زائد على حاجة الممول أو دافع الضريبة . وتضاف إلى ذلك عوامل أخرى تحد من قيمة التعيين الرقى على مر الزمن . . . ومن ذلك تقلب سعر العملة وإلغاؤها أحياناً .

وفى قول عمر (فيرد على فقرائهم) نظر عميق يشجع صاحب المال على التنازل عن بعضه ، لأنه يقنعه بأن الجباية تستهدف خير المجتمع .

وبعبارة أخرى ، حدّد المشرع وجه الصرف ، وفى هذا قدر كبير من إقناع دافع الضريبة بتحمل التضحية التى تلازم جباية المال . وفى إضافة لفظة الفقراء إلى دافعى الضرائب فى قوله (فقرائهم) براعة فى صياغة القاعدة ، بالإضافة إلى صدق القصد إلى المعنى الذى تؤديه . فهو يرغب القادرين على دفع المال ، بالتنبيه إلى أنه سيكون مردوداً على العناصر الضعيفة أو الفقيرة ، فليست الجباية إذن للإنفاق على منهاج تافه من التفاخر أو العظمة الكاذبة .

بقى التنبيه إلى أن الاسلام لا يدعو إلى البطالة والتواكل ، ولا يشجع المؤمنين على أن يتلمسوا الصدقات . . . وإنما يضع الاسلام هذه النماذج السامية لوصف الثروة بأوصافها الصحيحة التى تصرف الناس عن التكالب على جمعها . كما يقرر الصلوات الخيرة

بين الناس على نحو يجعل الاعتبار الاجتماعية مقدمة على ما عداها من المعاني المادية الخالصة التي أمن بها الفكر الغربي طويلاً، إلى أن بدأت محاولات للتشكيك في صواب هذا النظر، وجاء ما قرره الاسلام من أربعة عشر قرناً... أتم وأكمل من كل ما قال به فلاسفة الغرب بعد جهود شاقة.

ويزيد هذا المعنى وضوحاً، حين نلاحظ أنه من خير ما قال به فلاسفة الغرب الذين عاشوا في الحقبة ذاتها التي تقدمت الإشارة إليها (أواخر الثامن عشر وأوائل التاسع عشر) قول الفيلسوف البروسي، « كانت » الكمّ يؤثر في الكيف.

ولقد أراد بقوله هذا أن يردد بعض المعاني التي شملها البحث لعهد المدرسة التاريخية التي ثبت لها فساد النظرية التقليدية، وحملت على الملكية الفردية، كما حملت على المادية الخالصة وعلى معظم ما قال به (آدم سميث) من آراء.

ولئن كان الفيلسوف البروسي (كانت) قد صاغ عبارته هذه (الكمّ يؤثر في الكيف) للتنبيه إلى التزايد أو الاستكثار من الخير يؤثر في سلوك الفرد، ومن ثم في معاملته للناس. إلى حد أن زيادة الثروة لا تستحدث من الخصال إلا زيادة النهم، وسوء السلوك في معاملة الناس إلى حد البطش بضعيفهم..

لئن كان هذا المفكر قد وصل إلى صياغة بارعة لهذا المعنى الذي حرك رجال الفكر الاقتصادي، وأيدهم في مناهضة جمع المال.. فإن القرآن قد سبق إلى هذا المعنى بصياغته المعروفة بالتفرد

وبالإعجاز . وذلك في قوله تعالى : (كلا ، إن الانسان ليطغى أن رآه
استغنى) (١) .

وفي هذه الآية الكريمة من المعاني ما ينوء بشرحه العصبية أولو
القوة من الرجال ... وبحسبي أن أشير إلى بعض ظاهرات شمول
المعنى وإعجاز التركيب :

ذلك أن الآية الكريمة تبدأ بالزجر والردع ، إمعاناً في التنبيه إلى
معنى بالغ الخطورة . ثم إنه ردع وزجر عن الظنون التي تخالط الفكر
البشرى فيما عرضت له آيات أخرى ، ثم تؤكد المعنى بقسوها :
« ان » ... ثم تؤكد مرة أخرى بحرف اللام في قوله تعالى :
(ليطغى) ثم تؤكد مرة ثالثة بتقديم الأثر على المؤثر في سبق
الاشارة للطغيان (وهو الأثر) على الاستغناء أو وفرة المال ، وهذه
الوفرة هي (المؤثر) ... ثم إن الآية الكريمة تنفرد بمعنى لم يخطر
على فكر الفلاسفة من ولد آدم ، إذ قال تعالى : « ان رآه » وفي
هذا التعبير دقة نوجه اليها النظر ... فقد يطفئ الانسان حين يرى
أو يظن بأنه استغنى ، ولم يجعل النص القرآني الطغيان مشروطاً
بحصول الغنى فعلاً .

بل إن علم الله سبحانه وتعالى يقرر في أمر الانسان أنه إذا ظن
في تقديره الخاص بأنه استغنى فإنه يطفئ ... وليس في أقوال
الفلاسفة شيء من هذا الشمول في وصف الآثار السيئة على النفس
البشرية ... حين تمتحن بوفرة المال .

(١) الآية ٦ من سورة العلق .

مقترض قوى ومقرض ضعيف :

ولقد أكثر الكتاب والباحثون ذكر المقترض القوى والمقرض الضعيف .

وفاتهم من ذلك أمور تدخل في دراسة سوق رأس المال وتنظيم المشروعات .

ذلك أن المقترض الذى يجمع مدخرات الضعفاء من جماهير الشعب ، لا يعدم وسيلة لظلمهم ، فهو ينشئ الشركات الوليدة والشركات الشقيقة وشركات المجموعة ، ويقوم المنظمات الاحتكارية في أنظمة رأسية وأخرى أفقية ، ويستعدى بهذه المدخرات على المجتمع ، بل على الدولة ذاتها .

ومن الخطأ البين أن نظن بأنه في اعتماد نظام الفائدة المشروطة سلفاً حماية للمقرض الضعيف ، هذا غير صحيح ، لأن دفع الفائدة المشروطة سلفاً قد يستغرق نزراً يسيراً من الربح ، كما قد يكون من صلب رأس المال وليس في أنظمة المشروعات الخاصة ما يمنع المروجين من أصحاب المشروعات الذين يقترضون من الضعفاء ليس في الأنظمة التي وصل إليها المفكرون ما يدرأ عن المجتمعات هذه المفسد ، لهذا نرى خلال القرن التاسع عشر تطورات أخرى في الفكر الاقتصادي تناقش مشروعات الأفراد ، وتشكك في صلاحيتها . وهكذا نشأت فكرة المؤسسة العامة ، والملكية المختلطة بين الدولة وبين أصحاب المدخرات وفكرة التأمين . ولا تزال الأنظمة تتوالى . . . وكلها تهدف إلى حماية الادخار الصغير وجمهور

المستهلكين من جشع المقرض القوى ... فليس نظام الفائدة إذن
بِعلاج لهذا البلاء .

الفائدة الثابتة هي مجرد « تجربة »

على أنه جدير بالنظر أن الفائدة الثابتة لم تكن محل إجماع خلال
القرن التاسع عشر ، ولا خلال القرن العشرين من حيث تقديرها
والإلزام بها . ولعل أول قانون اعترف بمشروعية الفائدة الثابتة
صدر في سنة ١٨٣٣ بإنجلترا ، ومع ذلك نجد الخلاف بين التشريعات
بالغ الحدة الآن .

فتلاً في إنجلترا لم يكن القانون الانجليزي يبيح حساب الفائدة إلا
إذا كانت العملية مؤيدة بمسند مفروز قائم بذاته ، كالسند أو
الكمبيالة ، وغيرها من الأوراق التجارية كالفاتورة المقبولة ألخ .
كما أجاز القانون أيضاً اقتضاء الفائدة إذا كان العرف يقرر
ذلك ، أو طبقاً لما قرره السوابق بين طرفي المعاملة ... وفي غير
هذه الحالات لابد من وجود نص تعاقدى صريح بين طرفي المعاملة
ومن ثم لم يكن تقرير الفائدة نظاماً تشريعياً مستقراً ، وإنما كانت
أحكامه تهتز دائماً ...

وفي سنة ١٨٩٧ درست لجنة برلمانية مقترحات قدمت إليها
وانتهت المخطوات التشريعية بصدور قانون في إنجلترا سنة ١٩٠٠ .
وفي هذا القانون لم يتعرض المشرع لتحديد سعر قانوني للفائدة ،
وإنما سكت عن هذا . وكان من الممكن دائماً أن يشتط المقرض في

حساب الفائدة أو المصروفات ، أو بدل ضمان أو تأمين أو رسوم المعاينة ، أو مصروفات التحصيل ، أو الغرامات أو رسوم تجديد القرض ، أو أية فريضة أخرى يجيء بها المقرض على حساب المقرض ...

والضمان الهام الذى وضعه المشرع هو منح القضاء سلطة تقديرية ترخص بها على نحو يسمح لها بالتدخل فى العقد لوقف سريان بعض شروطه ، والحكم بإعفاء المقرض من بعض هذه التكاليف ، بل للقضاء أيضاً أن يفرض على المقرض أن يرد إلى المدين المقرض .. ذلك الفائض الذى حصله بغير وجه حق فى نظر المحكمة .

ولم تكن أحكام هذا القانون تمتد إلى محلات الرهن والبنوك وبيوت المراهنات ، إذ كانت لها قوانين أخرى . وصدرت التعديلات تباعاً فى سنة ١٩١١ وفى سنة ١٩٢٧ .

وأما فى الولايات المتحدة فإن كل ولاية تضع قواعدها الخاصة ، وتحدد سعر الفائدة الذى يجوز التعامل بمقتضاه . وفيما بين القواعد التى تتبعها الولايات تباين شديد ، مما يقطع بأن فكرة الفائدة الثابتة لا تعدو أن تكون تجربة من تجارب القرن التاسع عشر ، ولا تزال ...

فثلاً فى كل من ولاية (مارى لاند ، ونيويورك ، ونيوجرسى) إذا

اقترض الشخص الاعتبارى المتخذ شكل المؤسسة العامة أو ما في حكمها (Corporation) بفائدة أعلى من السعر الذى ينص عليه القانون فإنه لا يجوز للمقترض الذى تقدم ذكره أن يثير في مواجهة المقرض أى دفع خاص بالمعاملات الربوية . . . وفي قوانين ولاية نيويورك . يجوز الاقتراض بأى سعر للفائدة إن كان القرض يصل إلى أو يزيد على خمسة آلاف دولار، بشرطين هما : أن يكون الدين تحت الطلب (أى غير محدود الزمن) . والثانى أن يكون الضمان من الأوراق المالية .

أما القرض لمدة محددة فإنه لا يجوز أن تزيد فائدته على ٦٪ وإلا اعتبر قرضاً ربوياً .

وفي بعض الولايات مثل ولاية ماين (Maine) يجوز الاتفاق على أى سعر للفائدة ما دام القرض يعقد باتفاق خاص ، بمعنى أنه لا تكون نشأة الدين نتيجة لمعاملة جارية ، إنما ينشأ الدين بعقد يستهدف انشاءه .

وفي ولاية (مازى لاند) أيضاً يحدد سعر الفائدة للقروض العادية بستة في المائة سنوياً . . . وإنما إذا كان القرض صغيراً (٣٠٠ دولار أو أقل) فإنه يجوز أن يكون سعر الفائدة ٣ ١/٢٪ في الشهر الواحد .

ولو شئنا ان نتتبع تجارب الغرب إلى يومنا هذا في تطبيق نظام الفائدة لما زادنا البحث إلا تأكيداً لظاهرة تقدمت الإشارة إليها ، وتتلخص في أن هذا النوع من المعاملات هو استمرار للمعاملات

الربوية ، وهو لا يزال بسبيل التجربة ولم يستقر في بلد واحد ، بل لم يستقر في جملة ولايات الدولة الواحدة ، كما في الولايات المتحدة . ومن الخطأ إذن أن نظن بأن المعاملات الربوية التي تسمى بنظام الفوائد الثابتة هي صورة مستقرة ثبت نجاحها .

وأشد إمعانا في الخطأ أن نظن بأن هذا النظام يشكل واحداً من مقومات النجاح الذي صادفه الغرب .

آراء لورد كينز حول الفائدة

يقى أن أشير إلى أن بعض الاقتصاديين المحدثين (ومن أهمهم اللورد كينز) قد وضع الألفام من تحت أسس المعاملات بالفائدة ، وفي نظريته بمحث فنية صالحة لإيضاح ما نحن بصده .

* * *

ولأهمية الآراء التي قال بها (اللورد كينز) في أرقى الأوساط العلمية المشتغلة بالدراسات الاقتصادية ، نشير إلى بعض ما انتهى إليه في كتابه المشهور « النظرية العامة للتوظيف والفائدة والنقود » الذي صدر في سنة ١٩٣٥ ، ومن ذلك أنه يقرر ما يلي :

١ - ليس سعر الفائدة معياراً صالحاً لقياس التلاقي بين الادخار وبين توظيف المدخرات ، إذ كل من الادخار والتوظيف ينشط في مجاله الخاص ، ويتوقف اجتذاب المدخرات إلى مجالات التوظيف والاستثمار على عوامل أخرى بخلاف ارتفاع سعر الفائدة أو انخفاضه .

٢ - معظم العوامل التي تؤدي إلى ادخار الأفراد يدخل في عداد العوامل النفسية ومن ذلك ميل الشخص إلى الحد من استهلاك السلع والخدمات إيثاراً للدعة والراحة في مستقبل أيامه . ومنها تفضيل الشخص للثروة السائلة (أى النقود الحاضرة) ليكون قدر منها تحت أمره دائماً لمواجهة المفاجآت ، ولاغتنام الفرص ، ومعلوم أن الفرص المواتية تتجدد من آن لآخر ، ولا يغتنمها إلا صاحب المال الحاضر فليس سعر الفائدة إذن ، مقياساً صالحاً للتضحية التي يتحملها المدخر حال تقديمه المال إلى من يقدر على توظيفه في المشروعات .

٣ - يتوقف اتجاه المدخرات إلى مجال معين من مجالات الاستثمار (كصناعة الغزل مثلاً) على إنتاجية هذا النوع من النشاط الاقتصادي ، لا على سعر الفائدة .

٤ - انخفاض سعر الفائدة (أو إلغاؤه) قد يؤدي في المدى القصير إلى انصراف بعض الناس عن الادخار ، فإذا واجه المجتمع حالة كهذه قبل أن تصل جملة رؤوس الاموال المتاحة للتوظيف في المشروعات بوجه عام ، قدراً كافياً فإن للمجتمع أن يعالج هذه الحال بإجراء مناسب ، كأن يحل الادخار الجماعي (Communal Saring) محل ادخار الأفراد .

ويقرر (كينز) صراحة أن فكرته هذه تعنى نوعاً من اشتراكية الاستثمار (Socialization of investment) ولكنه لا يرتب على ذلك حتماً أن تمتلك الدولة كل أدوات الانتاج ، ذلك أن ملكية هذه الادوات

ليست هدفاً تسعى الدولة إليه . ومن ثم يستوى أن تملك الدولة أولاً تملك . ولكن الهدف الذى يجب على الدولة أن تسعى إليه ، هو التحكم فى جملة المدخرات ، وتوظيفها بما يحقق الصالح العام .

٥ - خير المعايير - عند كينز - لقياس مدى تقدم المجتمع وقيام الدولة بواجبها ألا تبقى بطالة ، أو بعبارة أخرى : أن تتحقق العمالة الكاملة إلى أبعد مدى مستطاع عملياً .

٦ - لتحقيق العمالة الكاملة يجب أن تعمل الدولة على توافر اضافات رأسمالية تزداد على رؤوس الأموال المشتغلة فى وجوه النشاط الاقتصادى . فإن تقاعس الأفراد - مؤقتاً - بسبب إلغاء الفائدة كان العلاج بالأدخار الجماعى . ومع ذلك سيقب لأصحاب المشروعات الخاصة وزن ، لأن آراءهم وخبرتهم لها قيمة .

وستجد الدولة دائماً صوراً صالحة لتعاون أصحاب المشروعات (هنا : أصحاب الآراء والفكر الناضج) مع المجتمع ممثلاً فى الدولة ، دون إعطاء رأس المال الخاص كل هذا الوزن الذى تفرد به فى ظل النظام الرأسمالى الخالص المعروف فى البلاد الرأسمالية .

٧ - يعترض (اللورد كينز) على القول بأن فى رأس المال ندرة نسبية على نحو ما فى الأرض الزراعية ويقول : بأنه إذا كانت الأرض بطبيعة مساحتها المحدودة بوجود قدر من الندرة النسبية ، فإن هذا المفهوم لا يصلح مضافاً إلى رأس المال . لأن الأموال هى نتاج التفاعل بين الجهد وموارد الطبيعة ، ومن هذا التفاعل تتولد الثروة الاقتصادية . ومن هذه الثروة يستهلك المجتمع قدرأ يلزمه فى معاشه

ويدخر قدرأ آخر . . . وبتوظيف هذه المدخرات تزيد رؤوس الأموال المتاحة للنشاط الاقتصادى ، ومن ثم رفع مستوى الرفاهة . وبتكرار هذه العملية يزيد رأس المال المستغل فى التجارة وفى الصناعة وغيرها من الوظائف الاقتصادية وتولد مزيداً من الدخول والثروات وبهذا يستمر التزايد فى جملة رؤوس الأموال حتى تصل إلى الحد الكافى لكل نشاط . وعندئذ تنتفى فكرة الندرة النسبية مضافة إلى رأس المال .

٨- وحين يتوافر من رؤوس الأموال المتاحة للتوظيف (فى صورة مدخرات خاصة أو جماعية) فإن سعر الفائدة يهبط بطبيعته إلى الصفر . ولا يبقى مجال يعيش فيه المستثمر المتبطل *The functionless investor* على حساب المجتمع ، بما يقتضيه من فائض ربوى فى صورة فائدة أرباح فاحش .

* * *

هكذا قال (اللورد كينز) ، وفى عبارق المقدمة تلخيص غير واف لنظرية هذا الاقتصادى المجتهد ، ولا أدعى بأن آراءه قد لقيت الترحيب بالإجماع ، ولكنى أقول : بأن هذا البريطانى الذى كتب فى سنة ١٩٣٥ ما كتب ، قد وصل إلى تقرير حقيقة خطيرة ، هى : أنه من واجب الدولة أن تعتمد على تحقيق وفرة المدخرات ، ومن ثم وفرة رؤوس الأموال المتاحة للتوظيف فى النشاط الاقتصادى . . . وبهذا وذاك تتحقق العالة الكاملة وتنتفى ندرة رأس المال ، ويهبط سعر الفائدة إلى الصفر .

ومن جملة هذه الأوضاع المتكاملة التي يجد فيها كل طالب عمل فرصته ، وكل صاحب فكرة رأس المال الذي يلزمه لإخراج فكرته إلى عالم الحقيقة لإضافة جديد من الانتاج ... هذه الأوضاع وحدها هي التي تؤلف النظام الاقتصادي الأصلح .

هذا هو رأى (كينز) ... وهذا هو ما أفهمه من تحريم الربا في كل صوره ، ومن بينها الفائدة الثابتة ، وإن كانت بالغة الضعف .
خاتمة

إذن ، القرآن يضع الإطار الخارجى للنظام الاقتصادى بصورة واضحة ومستقرة . ولكل مجتهد أن يضيف مزيداً من التفصيلات ... وإنما في حدود الإطار الثابت الذى يضم هذه التفصيلات .

وهذا الإطار بسيط وواضح ، ويتلخص في تحريم المعاملات الربوية أخذاً وعطاءً ، سواء أكان الربا محمداً سلفاً أم آخرأ . أكان الربا لقرض انتاج أم لقرض استهلاك ...

لأن فكرة الاسلام في تحريم الربا هي أبعد كثيراً مما ظن الذين أفتوا بجواز فائدة المودعات لدى صندوق البريد ولدى غيره من المنشآت ...

ففكرة الاسلام تتلخص في أن نظام النقد بجميع صوره ، لا ينبغي أن يكون إلا للدولة . ومن ثم يكون سك النقود وإصدار العملة الورقية ، وخلق النقود الحسابية بالإئتمان مثلاً ... هذه كالفروع

لوظيفة واحدة . وهذه الوظيفة لا تنبغى إلا للدولة .

ومن ثم تكون المصارف وهيئات تكوين رؤس الأموال (كشركات التأمين وتوظيف المدخرات) منشآت لا يجوز للفرد ولا للشركة أن تملكها . إلا إذا رجعنا القهقرى وأجزنا للفرد أن يسك العملة وأن يصدر النقود الورقية وأن يتقلد في عشيرته أو في المجتمع ، وظائف القضاء والأمن .

الفائدة الثابتة هي استمرار لصورة من صور الربا ، تصح في مجتمع متخلف ينهش فيه القادر لحم أخيه الضعيف حياً وميتاً . ويحاكم فيه القوى الضعيف ويفرض عليه إرادته على أسناس أن إرادة الفرد هي القانون ، كما كانت الحال في الهمجية الأولى . . .

الفائدة الثابتة بقية من بقايا سيطرة رأس المال ونهم الحيازة ، ولم تحقق من الآثار الاقتصادية إلا الفساد . . .

ذلك أنها قرينة التحكم في رأس المال ، واتخاذ وسيلة للبطش بالمجتمع . . .

ولقد جاء الاسلام بحضارة سامية ، لا نزال نجاهد في سبيل فهمها ، ولعلنا نصل .

وإنما لا يجوز أن تسرع في الحكم ، ونقرر التزيد في التأويل والتفسير لتتسع أحكام ديننا ، المنزه عن الخطأ ، لصور بغيضة فاشلة من بقايا عصور الهمجية . ومن أخطر هذه الصور على النشاط

الاقتصادى ، المعاملات الربوية ، وإن خففت إلى ما يعرف بالفائدة القانونية .

ولست أصف النظام الرأسمالى الربوى بالهمجية الأولى تزيدياً فى الهجوم عليه ، وإنما أردد آراء المدرسة التاريخية ، والمدرسة الامريكية التى لا تزال تعيش إلى يومنا هذا ، كما أردد أقوال (كينز) ... وهؤلاء كلهم من دعاة الفكر فى الغرب ، لا فى الشرق الشيوعى ، الذى عجز عن علاج الربا ومساوته فأطاح بالملكية الخاصة ...

* * *

أما الاسلام فقد جاء بأحكام متزنة ، تعترف بالملكية الخاصة وتهذبها بفرض الزكاة وتحريم الفائدة الثابتة وأية صورة أخرى من صور الربا .

وبهذا وضع الاسلام قواعد العدالة الاقتصادية على نحو ، نريد بفكرنا أن يتسامى حتى يفهمه .

ولقد فهم اللورد (كينز) طرفاً من عظمة أحكام الاسلام ، ولست أدرى - فى موقفى هذا - أكان مطلعاً على بعض هذه الاحكام ، أم أنه وصل بالفطرة السليمة إلى تقرير أوضاع صالحة ، جاءت قريبة من كمال الاسلام ؟ .

ولا أستبعد كلاً من الاحتمالين ... لأن الاسلام هو دين الفطرة . هو الدين الذى لم يقرر قاعدة واحدة إلا ولها من طبيعة الأشياء ونوازع النفس البشرية مبرر ، يجعل الأخذ بها كفيلاً لصالح الحال .

فإذا حرم العالم المفكر الموهوب ، من نعمة الاسلام ، أو حرم من الاطلاع على أحكام الشريعة فإنه - مع ذلك - قد يصل بالفطرة السليمة إلى اعتناق بعض القواعد التي جاء بها القرآن ، أو وصفتها السنة .

وإنه لما يدعو إلى الأسف أن يقول اللورد (كينز) وغيره بما قدمت أمثلة قليلة منه ، ثم نجد من بعض المتخصصين عندنا من ينادى بتفكيك الحكم الاسلامي وتوحيده ، لعله يتسع لمعاملات مرذولة ، يقال بأنها نموذج العصر الحاضر للنشاط المثمر ..

ولا أريد أن أقسو في النقد ، وإنما أحذر من التورط في الظن بأن الأنظمة التي وضعها الانسان ، قد فاقت نظاماً وضعه الرحمن وأحذر من الظن بأن كتاب الله قد خلا من تقرير كل قاعدة فيها صلاح البشر . إما تفصيلاً وإما إجمالاً .

وفي هذا تفصيل وتفصيل ...

ولكن هذا الموضوع لا يستوفى في محاضرة أو اثنتين .

وبحسبي ما أشرت إليه من أسباب استند إليها في القول : بأن أصحاب النظرية المتوسعة في التحريم ، يجدون من تطور الفكر الاقتصادي والاجتماعي ما يساند رأيهم .

وإلى كل مختص بهذه الدراسات ، أوجه دعوتي إلى مزيد من العناية ببحث هذه المشكلة المزمنة .

ولعل أوفق إن شاء الله إلى مزيد من بيان الأصول السليمة في

أحكام الاسلام ، التى لا تدانيها أحدث النظريات العلمية ، وإن كانت هذه النظريات تساعد على إلقاء مزيد من الضوء على القواعد القديمة الكاملة الثابتة التى جاء بها الاسلام ، وسيتضح مع الوقت أنه ما من نظام اقتصادى يكفل السلام بين الطبقات ، وبين الشعوب ، إلا ما جاء به الشرع الحنيف .

تم بحمد الله

فهرست

٥ كلمة الناشر
٧ مقدمة الطبعة الثانية
١٥ مقدمة الطبعة الأولى
٢٧ مفاهيم اقتصادية
٢٩ البناء الاقتصادي
٣١ الشبكة الاقتصادية
٣٥ القسم الأول - وضع الربا في البناء الاقتصادي
٣٥ تمهيد
٣٦ أحكام الاستدلال
٣٧ الاستدلال إنما يكون بالأسلوب العلمي
٥٣ ماهية النظام الاقتصادي
٥٦ مشكلة الربا واثنان المعادل من القرون الوسطى المبكرة
٦١ تراجع تعاليم الكنيسة
٦٣ الأب توماس الاكوينى وفلسفته عن اثنان المعادل
٦٧ استقلال الرأسمالية من قبضة الكنيسة في الغرب
٧٠ موقف الكنيسة
٧٠ ١ - نص الإنجيل
٧١ ٢ - موقف الكنيسة من التجارة
٧٢ ٣ - سلوك بعض رجال الدين
٧٥ التنظيم الاقتصادي كما جاء في بعض آى الذكر الحكيم
٧٩ المغايرة من سنن الله ، لا يصلح الكون ولا الخلائق إلا بها
٨٧ موضع الربا من البناء الاقتصادي
٩٠ خصائص الربا
٩٢ ماهو الربا
٩٥ خاتمة القسم الأول
١٠١ القسم الثانى
١٠٢ تلخيص القسم الأول

١٠٧ خلاصة للجدل حول النصوص
	نجاح الصناعات الثقيلة في الغرب كان من أهم العوامل لاستعمار
١٣٠ الشرق
١٣٢ قائمة الحساب
١٣٦ كيف تبحث مشكلة الربا
١٣٧ ماهية الاقتصاديات
١٤٥ عرض لأراء بعض مفكرى القرن الثامن عشر والتاسع عشر
١٤٥ آدم مولر
١٤٧ فردريك لست
١٤٨ سيموندى
١٥٣ ثورشن فبلن
١٥٩ نماذج من ثقافة الإسلام
١٦١ وحدانية الله اسمى الغايات
١٦١ صلة الرحم أهم لبنة في بناء المجتمعات
١٦٣ الإنفاق أمر إلهى فالمال مال الله ونحن مستخلفون فيه
١٦٥ وصايا إلهية بالإضافة إلى الحقوق المفروضة
١٦٧ وللتيامى عناية خاصة
١٦٨ المال الخاص وحق الدولة فيه في نظر الاسلام
	فهم سيدنا عمر بن الخطاب لقواعد الأخذ من المقتدر لصالح
١٧٤ الضعيف
١٧٩ مقترض قوى ومقترض ضعيف
١٨٠ الفائدة الثابتة هى مجرد تجربة
	اختلاف النظر إلى الفائدة في قوانين الولايات المتحدة الأمريكية (غير
١٨١ موجود)
١٨٣ آراء لورد كينز حول الفائدة
١٨٧ خاتمة
١٩٥ بيان إلى القارىء
١٩٧ للمؤلف

بيان إلى القارئ :

في عشر سنوات مضت أصدر المؤلف طائفة من الكتب التي ظهرت خارج مصر ولم تصل إلى بعض البلاد العربية لسبب أو لآخر لا يغيب عن ذهن القارئ . . ثم سنحت الفرصة لإصدار طبعة ثانية . ولإصدار عدد آخر من أحدث ما كتبه المؤلف في عامي ١٣٩٥ هـ و ١٣٩٦ هـ . ولم يُطبع من قبل .

وهذا البيان ضروري . . حتى يتضح للقارئ : كيف يمكن للكاتب واحد أن يُصدر مجموعة من الكتب في مسافة زمنية قصيرة . . نرجو من الله جل شأنه ألا تتعدى عامي ١٣٩٧ هـ و ١٣٩٨ هـ « وكل شيء عنده بمقدار » .

نحمده تعالى على نعمه التي لا تعد ولا تُحصى . ونسأله التوفيق

المؤلف

للمؤلف

- تحت الإعداد والطبع :
- التأمين بين الحل والتحريم
- بنوك بلا فوايد
- حاجة المسلمين إلى خطة عمل
- العقود الشرعية الحاكمة للمعاملات المالية المعاصرة
- حصاد المؤتمر العالمى الأول للاقتصاد الإسلامى (صفر ١٣٩٦)
- حصاد المؤتمر العالمى للفقہ الإسلامى (ذو القعدة ١٣٩٦)
- التشريعات الوضعية الحاكمة لشركات الأموال
- الزكاة أداة اقتصادية بالغة الإحكام
- مشكلات السكان والإسكان
- حقيقة النفس والروح أو حقيقة الإنسان
- بحوث فى الربا
- دور الربا فى استغلال الشعوب
- الاقتصاد الإسلامى
- دليل إلى ما فى الكتاب والسنة من ضوابط للنشاط الاقتصادى
- النظم المالية فى الإسلام
- حديث الفجر
- وتطلب جميع هذه المؤلفات ، حين تظهر تباعا إن شاء الله تعالى ،
من دار الاعتصام ، ومن المكتبات الكبرى فى جمهورية مصر
العربية ، وفى العالم العربى .

رقم الابداع / ٧٦/٥٦٢٣

الترقيم الدولي / ٧ - ٦٤ - ٧.٦٥ ISBN

